FEKRIASHEHRA

قلب حاف

فكرية شحرة

رواية

قلبٌ حافٍ

قلبٌ حافٍ

فكرية شحرة

إهداء..

إلى كل أنثى تمضي على جمر العمر حافية القلب..

إلى كل امرأة كسرت أسوار الجهل وصنعت المجد بمجازفة.

إلى الذين يسيرون بقلوبهم في الحياة ينتعلهم الحب؛

حفاة يحصدهم الشوق والشوك.

حين أنسج دثاراً من الحبّ حرفًا .. حرفًا من روحي قبل أناملي
كي أبعث الدفء في قلبك المتجمد من البعد ثم لا تلبسه روحك..
أودعه للريح.
حين أنظم عقدًا من كلماتي وأطرزه بدموعي ثم لا ترتديه
عيناك.. أودعه للريح
حين أتمنى أن يضم حضورك الغائب همسات شوقي ويحرمنا
البعد أودعه الريح..
حين تشتاقك روحي كثيراً جدًا ولن تكون قربي أبدًا ..
أودعها الريح..
حين يتحول قلبي إلى طفلٍ بين يديك..فقط يسمعك ويطيع..
يتأوه ويبكي شوقًا لك.. يتعلم الكلام بوهج وجودك و يتأتيء بكلمة
أحبّك..أحبّك.. وأنت لا تبالي أو تدري كم هو صعب تهجئة حروف
الكلمات من أجل عينيك.. تذروه الريح..
حين تجوع حواسي لسماع صوتك وتتمنى أن ترشف كلماتك على
صدرك ومن بين شفتيك ، فتصم أذنيك إهمالا .. تتشظى روحي
ظمأ. و تذوي وجعاً لتعصف بها الريح.
حين يصاب قلبي بالحمى يهذي بك.. يتصبب ألماً لغيابك..
يتفتت..ثم يموت.. حينها .. حينها فقط ستعرف ماذا خسرت ؟..
خسرت قلباً نصبك رباًّ يعبدك كل العمر..

فكرية شحرة

أيتها الأنثى..

قد ينتهي العمر ولم تصبحي ليلى مرة؛

ولم يصادفك قيس أبدًا،

فكوني لذاتك قيسًا لليلى ولا تكوني لليلى ذئبًا.

وقفت تتأمل هيئتها في المرآة الكبيرة، ابتسمت لنفسها في اندهاش:

_أبدو هكذا كسيدة عجوز فعلًا، وليس فتاة بلا زوج.. كم تغيرنا المظاهر!!

كانت الثياب الفضفاضة قد أخفت تفاصيل جسدها الجميل، وأضاعت بين طياتها نحول خصرها و امتلاء صدرها، كم تختلف عن بالطو العمل المفصل بدقة ليلف جسدها بشكل عملي وأنيق.

كان ذهنها يقدح شررًا من أفكارها المتصارعة حول سبب مجيئها إلى هنا، هل هي توبة معترف بذنبها بعد مكابرة وعناد ؟!

أم هي محاولة أخيرة للمصالحة مع الذات..

ألم يقل يومًا ذئب ليلى أن في رأسها نارًا تشتعل من سوء الظن به ؟ لقد قال ذلك وهي في ذروة البراءة والبلاهة، ليته يعلم أين وصلت نيرانها تلك التي أحرقت ليلى وكل براءتها؟.

لقد أصبح لها حكاية.. تجلس إليها كل مساء، تحتسيان كؤوس المرارة والحرمان، و تعاهدها كل ليلة أن تكون في براءة تفكير الذئاب.

هي التي تقص حكايتها للريح فقط..

فعندما يقص الإنسان حكايته لشخص آخر فإنه يحاول جاهدًا أن يزيح أكبر قدر من الحقائق السيئة عن نفسه، ربما لأنه يجهلها أحيانًا وأحيانًا ينكرها، ولأنها تقصها للريح فإنها لن تسلّم لمقص الاختلاق والتزييف

أجزاءً من حكايتها، إنها تخبر الريح بتلك التفاصيل التي أخفتها عن جوارحها التي تشي بها كثيرًا.

إنها الآن على موعد مع الله، موعد انتظرته منذ سنوات طوال..

كي تعتذر لنفسها وتبحث عنها هنا..

خرجت من حجرتها في شرود أصبح لصيقًا بها، وهناك كان ينتظرها شاب صغير السن، طلته الجميلة تشبهها كثيرًا، إنه عمر الصغير الذي أصبح رجلاً صغيرًا في فترة التيه الذي أثمر ، هو هنا محرمها الذي يصطحبها في سفرها إلى الطريق الذي تعتبره نقطة البداية للنهاية.

هتف حال رؤيتها وهو يطلق صفيرًا حادًا من بين شفتيه:

_واو يا عمة، أصبحت من تلك النسوة تمامًا، وأطلق ضحكة مرحة وهو يضيف:

_تقبل الله مقدمًا يا حاجة عفاف.

ضربت صدره اليافع بحنو وهي تقول:

_ لا تقل حاجة عفاف، ليست سوى مقابلة صغيرة مع الله في عمرة وليس حجة حتى تناديني بالحاجة، بإمكانك أن تناديني يا عمري.

بادلته الضحك وهي تقرص خده بلطف، إنه ابنها الذي لم يتخلق في رحمها.

لقد اختارت وقتًا لعمرتها تختلي فيه بأول بيت لله على الأرض بلا زحام المواسم، مكان تثق فيه أنها ستنسى كل ما مر في حياتها من شقاق لأقدار رب هذا البيت.

في طريق الذهاب حرصت على استرجاع طقوس العمرة التي مهما استوعبت عبرتها إلا أن جزءًا من عقلها يرفض أن هذه الشعائر تعد شرطًا لقبولها من الله في عداد عباده الصالحين.

هزت رأسها كأنها تبعد لسع أفكارها التي تخز رأسها:

_ هل ما زلتِ على غوايتك اللعينة يا عفاف تجادلين في كل شيء ؟!!.

وصلت هناك.. وطالعتها الكعبة المشرفة تلبس الحداد على أمة مليار إنسان مغيب، أو ربما ترتديه على عفاف التي غيبت نفسها.

لذلك المبنى رهبة آسرة، حين يطالعك لأول مرة تشعر أنك وصلت الصدر الذي ستبكي عليه لتعود طفلاً من جديد.

ذكّرها عمر بما ينبغي عليها من شعائر العمرة، لكنها اتجهت صوب الكعبة دون الالتفات إلى الكتيب الذي يُتلى منه خطوات الشعيرة.

ولخلو الكعبة تقريبًا من الناس تعلقت بأستارها وأطلقت العنان لدموعها.

هكذا تعلقت يومًا بقميصه المفتوح كأستار الكعبة، تناشده ألا يتركها، ألا يحرمها وجوده في حياتها بعد أن وهبته هذه الحياة.

ظل عمر يراقبها لبعض الوقت في حيرة، ثم انتابه الملل فتركها وأخذ يمارس شعائره الخاصة باستمتاع أول مرة.

عفاف وهي تسند صدرها المنتفض لجدار الكعبة الساخن أدركت أن ما تبحث عنه هنا..

ليس هنا..

طوال الوقت كان معها، وما كانت تحتاج لمعرفته إلى طقوس أو شعائر ، هي بحاجة للتطهير والتفكير.

والامتلاء بالرضا فقط..

كففت دموعها وتحركت تبدأ شعائر العمرة التي سبقها إليها عمر الصغير.

وخلال فترة مرهقة من الوقت عادا إلى الفندق وقد ألهبتهما حرارة الشمس.

قالت لعمر وهما يتناولان الفول والتميز الغارق بالزيت على العشاء:

_ يجب أن نشتري الهدايا ونعود إلى اليمن في أقرب وقت.

احتج بغضب طفولي وهو يصيح:

_لا يا عمة أرجوكِ..لم نرِ من مكة شيئًا، كما أننا لم نجلس مع عميّ أحمد ومحمد وأولادهما في الرياض بما يكفي.

_سنرى ما تشاء ونتسوق أيضًا الهدايا وسنودع عميك و أولادهما أيضًا ، لقد اشتقت لحجرتي وكتبي وعملي و زملائي.

_ تتحدثين يا عمتي وكأنك هنا منذ أعوام وليس أيام فقط.

شردت نظراتها وهي تقول:

_ أشعر أنني غائبة عن نفسي أعوامًا، لكني لم أجدها هنا.

نهض وهو يقول مازحًا:

_ما رأيكِ نبحث عنها في جدة.. يقولون جدة غير.

نهضت بدورها وهي تقول ضاحكة:

_ أنت لا أمل فيك مثل عمتك تمامًا.

*****

بنات العائلات المحترمة لا تكثر من الخروج من المنزل لأي سبب.

و بنات العائلات المحترمة لا تحضر المناسبات لكل من هب ودب.

و بنات العائلات المحترمة لا يظهرن للضيوف من النساء المستطلعات ولا يجادلن ولا يرفعن أصواتهن ولا يكشفن شعورهن لغير المحارم..

و بنات العائلات المحترمة في حجراتهن الخاصة يلعنّ العائلات المحترمة لفرط الترهيب وقوانين الكبت السخيفة التي لا معنى لها.

كانت تتسلى في صباها مع ابنة الخال سوسن في سَنِّ قوانين مضادة لحماية البنات من تسلط الأهل في فرضهم قوانين ضمن لائحة طويلة ومجحفة خاصة ببنات الأسر المحترمة.

لكن لطول لائحة القوانين تلك وتنوعها حسب كل ظرف ووقت وكل حالة تستدعي قانونًا يُسنّ في ساعته وحينه، عجزت عفاف أن تصنع قوانين تحميها من عقوبات مخالفة تلك التي يسُنها الجميع حولها.كانت تثق في ابنة الخال سوسن وتخاف من الواشيات أخواتها الأكبر سنًا.

لقد كانت آخر العنقود، أو أسفل العنقود كما تعرّف بنفسها، فقد كان كل من هو أعلى منها سنًا يمثّل دور المرشد الخاص بها، وعليها طاعته بلا نقاش بحكم صغر سنها.

ولدت بنتًا جميلة، لأب أكثر عمره في الغربة، وأم تجزأت بين مهام الأب والأم لسبعة أطفال أربعة ذكور وثلاث إناث.

كانت عفاف ثالثة الفتيات في المنزل يفصلها عن السابقتين ولدان هما أحمد ومحمد أقرب للتوأم.

لكن ارتباطها الروحي كان مع أخيها الأكبر خطاب ، كان الوحيد بين الذكور من تلجأ إليه كأب في غياب الأب.

بعد خطاب يأتي في الترتيب أخوها جمال. ثم هند وهدى.

بسبب اغتراب الأب المتكرر كانت الفوارق العمرية بين الإخوة كبيرة.

لقد تزوج خطاب وعفاف تبدأ عامها الثاني عشر، فكان زواجه حدثًا جميلًا لأسرتها الكبيرة، وعضوًا جديدًا ينضم إلى عائلة تسعد بتوسعها.

لقد أفسحت الأم للعروس أجمل غرف البيت في الطابق الأعلى وتم نقل حجرات نوم الأولاد إلى لطابق السفلي، رغم اعتراضات جمال الرافضة لتبديل حجرته التي كان يتقاسمها مع خطاب لكنه قرار لا بد منه.

أصبح الطابق العلوي للفتيات الثلاث يتقافزن في ملابس النوم في الرواق دون خوف أن يصادفهن جمال أو محمد وأحمد.

لقد كان من دواعي الحشمة التي تربين عليها ألا تظهر إحداهن في ملابس النوم أمام أحد، ولطالما نالها التعنيف من والدتها كلما برزت للرواق بثوب نومها الزهري، تبحث عن كأس ماء، أو تدخل الحمام لحاجة.

*****

في حفل الزواج تعرفت عفاف إلى عالم النساء الغامض، كان هناك فصل تام بين عالم البنات وعالم النساء يجب ألا تتعداه بنات العائلات المحترمة.

كانت ترى أختيها الشابتين وفتيات العائلة الكبيرات يمارسن طقوس الزينة وإظهار مفاتنهن بحرية وجرأة، فهو حفل زفاف ويحق لهن ارتداء ما يرغبن.

في أول أيام أسبوع الزفاف تجمعت الفتيات في منزل والدها الكبير، بنات الخالات والأخوال والعمات والأعمام وفي حماس جماعي قمن بنزع الشعر عن سيقانهن بين صرخات الألم ودعابات الخدع والمقالب تمهيدًا لنقش الحناء.

تأملت ساقيها!!، لم يكن هناك سوى زغب خفيف لا يكاد أن يُرى ، وحين طلبت من هند السماح لها أن تفعل مثلهن صرخت في وجهها:

_ أنت ما زلت صغيرة، لا تعودي نفسك أبدًا على نزع الشعر مهما كان ، فسيتكاثر ويتعبك مستقبلًا، ابقى هكذا أفضل لك. خذيها من أختك.

في اليوم التالي توجهت العروس وكل بنات العائلتين إلى حمام البخار، الذي يبعد كثيرًا عن منزلهم في شارع هايل وسط صنعاء.

كان يومًا عالميًّا واستثنائيًّا لمراقبة الأجساد شبه العارية ومقارنتها بجسدها الفتيّ الذي بدأ يظهر كنوزه.

طوال أيام العرس وهي تحاكي تصرفات الفتيات الكبيرات وتتخيل نفسها فتاة شابة تهتم بالزينة وتتعلم حركات الرقص المثيرة من الفتيات الأكبر ، وكأنما استجاب جسدها للدور فدخلت عالم النساء بأول دورة حيض استقبلتها الأم باحتياطات أمنية عالية الشدة ومزيدٍ من التعاليم والقوانين الخاصة تحت مسمى: أصبحت الآن امرأة.

******

تزوجت هند وخطبت هدى..

وسافر خطاب للعمل مثل والده بعيدًا في الغربة، فلم يتمكن من استقبال مولوده الأول عمر.

أصبحت عفاف أكثر قدرة على مجابهة جمال كلما حاول مضايقتها حول تصرفاتها أو خروجها إلى صديقاتها، كان يحاول فرض سيطرته على كل من في البيت مع تفاقم شعوره أنه الأكبر هنا.

وخلال دراستها المرحلة الثانوية تحول المنزل إلى كابوس يجثم على أنفاسها مع تسلطه وتراخي والدتها أمامه، كان إخوتها يتحاشون الاصطدام به إرضاء لوالدتهم التي افتقدت حنو خطاب ورقة قلبه، تفتقد طوال العمر حضور الأب الحازم والحنون.

ربما عفاف هي الوحيدة التي تعترض وتناقش وتحتج وهي الوحيدة التي لا يطيق وجودها في البيت، فلم يكن غريبًا أن يحضر ذات يوم خطيب لها من أصدقائه، ولم تنهِ بعد دراستها الثانوية ، ويصر على أن يكون عرسها مع هدى في نفس اليوم.

حتى هنا كان يمكن لها أن ترضخ لأوامره المتعنتة، أما رضوخها للزواج رغمًا عنها فهذا ما لن يحدث، إنها مسألة حياة أو موت، إنه الرباط الأبدي لبقية عمرها وهي من ستختار ذلك الذي تهبه قلبها قبل أن تهبه جسدها.

هي لم تعد طفلة مغمضة العينين، يقودها الكبار إلى حيث يريدون..لقد أصبحت راشدة وستختار طريقها لأنها هي من ستسير فيه.

حين أفصحت الأم بأمر الخطيب لها لم تمهلها عفاف كي تسرد مزايا ومناقب الزوج والزواج بل قاطعتها بحدة شرسة:

_ أنا لن أتزوج عن طريق جمال أو من أحد أصدقائه يا أمي ، وإذا أصررتم فسأختار الموت أو الهروب من البيت ما رأيكِ ؟.

الأم في قرارة نفسها ترفض فكرة زواج ابنتها من صديق جمال، لذا لم ترغمها كعادتها على القبول مثل كثير من الأمور التي أرغمتها سابقًا عليها لأنها تعتقد أنها في صالحها في النهاية.

ربما لقناعة الأم أن علاقة الزواج لا تحتمل الإجبار فهي مصيرية وقصة عمر وحياة طويلة مشتركة.

ولأول مرة حين جنّ جنون جمال لقرار الرفض تصرخ فيه الأم مهددة بإخبار الأب عن تصرفاته الطائشة والمتعنتة في إدارة البيت كرجل يجب أن يهتم بالعائلة لا أن يناكدها.وبدلًا من الاعتذار صبّ كل حنقه على عفاف كمسؤولة عن غضب والدته وتأليبها ضده.

لقد كانت حياتها سلسلة من الأزمات مع هذا الأخ المستأسد عليها، ولكم تمنت عودة خطاب من الغربة للأبد.

وكأنما استجابت السماء إلى دعواتها، حين هاتفهم خطاب بنيته العودة خلال يومين في حالة لم يسبقها اتفاق أو مشاورات كالعادة.

أمها فقط من انتابها القلق من قرار كهذا ليس له مقدمات أو أسباب، كانت تخشى أن خطاب قد اختلف مع والده وترك العمل معه.

لم تكن تعلم أن الوالد كان في طريق العودة أيضًا..

إنما جثة غادرتها الروح.

طوال أيام العزاء لا تدري عفاف لماذا تبكي تحديدًا ؟

هل تبكي غياب الأب الغائب دومًا ؟

أم تبكي فقدان الأمل في عودته تمامًا ؟

أن يغادرهم بعيدًا إثر ذبحة صدرية وبصمت يبدو كأنه مازال في غربته المعتادة والطويلة من قبل أن تولد هي.

لولا ذلك الجسد المسجى الذي وصل كطرد عبر الجو ليدفن في أرض الوطن، جسد قرر أن يحيا في وطنه ميتًا مادام عجز أن يعيش فيه حيًّا.

ولولا الهلع والصدمة والبكاء والعويل الذي ارتج له المنزل الكبير لكان الوالد في خيالها مازال في غربته الطويلة.

تفكر.. لماذا قدر لها منذ ولدت ألا تقبّل خديّ هذا الأب إلا مستقبلة له أو مودعة ؟ وألا تعرف قبلته إلا بعد أن صارت تنتظر عودته من ذات غربة.

وهذه القبلات المرتعشة على جبينه البارد هي القبلات الأخيرة ، فلا عودة من غربته هذه المرة، أم لعله عاد أخيرًا لحضن الوطن الذي لا يعرف احتضان ابنائه إلا موتى وقتلى ؟

لقد مات الحاج حسن الولي والد عفاف وهذا ما حدث فعلًا.

******

قرر خطاب أن ينهي غربته مبكرًا..

لقد كان لموت والده وحيدًا بعيدًا عن أبنائه أثر ساحق عليه. وحين احتضن عمر الرضيع زاد خوفه من مصير والده الحزين.

لن يسمح أن يكبر عمر وإخوته الذين سيأتون من بعده وهو هناك في الغربة يشاهد الصور وأفلام الفيديو دون أن يلامس بيديه أطفاله ويضمهم إلى صدره، فيكبرون لا يعرفون هذا الأب.

لقد كان بين خيارين إما أن يصفي أعمال والده في الغربة أو أن يسافر أحد إخوته العازبين، إذا رغبوا في ذلك.

بعد مناقشات طويلة مع إخوته ووالدته اختار أحمد ومحمد السفر إلى العمل هناك في حين رفض جمال الذي اعتاد أن يحصل على ما يريد دون غربة، كان دخله من محل الهواتف يكفيه مع ما يتحصله من والدته، ثم إنه يرغب في الزواج والاستقرار في بلده بين أهله ورفاقه.

أحمد ومحمد وبعد إنهاء دراستهما الجامعية كانا يتنقلان بين أعمال لا ترضي طموحهما التجاري لذا وجدا في السفر غاية ما يصبوان إليه.

وخلال أشهر من وفاة الأب عاد الاستقرار إلى بيت العائلة بوجود خطاب ، الذي بدأ يفكر في زفاف هدى وجمال بعد انتهاء عفاف من امتحانات الشهادة الثانوية.

******

هذه المرة في زفاف جمال وهدى كانت عفاف هي نجمة المناسبة بلا منازع، كانت سعيدة..

والسعادة تضفي جمالًا لا يعرفه إلا من خبر التعاسة وما تفعل في الوجوه والقلوب ، تشعر أن حياتها مكتملة..

لقد عاد خطاب الحنون ليمارس دور الأب الغائب ويبعد عنها مضايقات جمال.

جمال الذي سيتلهى بعروسه ويتركها تنهي دراستها دون تدخلاته ومحاولاته لإجبارها على التوقف عن الدراسة. أو ملاحقة تصرفاتها بنقده ومراقبته. لقد أنهت امتحاناتها بتفوق يمكّنها من اختيار التخصص التي تتمنى، فكيف لا تزداد بريقًا كعروس.

إلى هنا والحياة كحقل مترامي الأطراف من السعادة والآمال في عيون فتاة في السابعة عشرة ، لم تعرف من أوجاع الحياة سوى المزاح على شكل مناكدات أخ متعنت وحرمان من أمور قد تكون في متناولها في قادم العمر أو موت أب لم يكن حيًا سوى في الإجازات النادرة وخيال اليكترا الطفولي الذي يحن للأب.

أحيانًا يتمنى الإنسان لو توقف العمر في فترة معينة أو نقطة انطلاق لا يعقبها أي تحرك ، ذلك التلهف إلى القادم الأجمل والتقدم في العمر بشكل أسرع، مازال لغزًا يخص الغباء البشري، فإذا مر العمر و ابتعد عن البدايات

وحلت النهاية التفت إلى الوراء يبكي ما مضى ويتمنى العودة إلى مرحلةٍ ما كانت هي الذروة دون أن يعلم.

******

انفرد جمال بالسكن في الطابق الأسفل بعد إلحاح شديد منه على أن تكون له حياة منفصلة وبيت منفصل، فآثرت الأم أن تسكن هي وعفاف لدى خطاب، على أن توجد حجرة مخصصة لها في الطابق الأسفل متى شاءت أن تنزل عند جمال كي لا تشعره بتفضيل خطاب عليه.

كان هذا أجمل قرار حدث في العائلة في رأي عفاف، فهي سترتاح أكثر من تعليقاته السمجة كلما التقيا على مائدة واحدة كما أنها لن تكون مضطرة لأخذ الإذن منه حال خروجها لزيارة صديقاتها أو قريباتها.

أصبحت أمها هي مجال اهتمامها بعد أن رحل عن البيت أربعة من إخوتها للسكن بعيدًا وأصبحت تعاني الاكتئاب بعد موت الأب و سفر أبنائها وزواج الفتاتين واستقرارهما بعيدًا عنها ، تهمس في أذن عفاف كلما استلقت إلى حضنها بحزن:

_ لم أعد أقلق في هذه الدنيا إلا عليك يا عفاف، تزوج أختاكِ واستقر إخوتك ، ولم يعد سواك يبقيني ويؤخرني عن اللحاق بأبيك.

كل يوم كانت الأم تزداد ذبولاً كأنها تشعر أنها أدت رسالتها في الحياة، وتتمنى فقط أن تطمئن على صغيرتها العنيدة قبل أن ترحل.

******

مرحلة الجامعة.. هي مرحلة المزج بين عالمين ، الحلم والخيال. النضوج والمراهقة ، الحب والخوف.

مرحلة يجب أن تترك أقوى بصماتها المحركة في حياة الشباب والشابات.

لكنها في حياة عفاف كانت مرحلة الحياد فلا مزج أبدًا.

هي مرحلة التعليم الأهم والأقوى لاختيار المستقبل وفقط.

لذا لم تبدأ حياتها هناك، بل كانت مرحلة استئناف هادئة لمرحلة سابقة من عمرها ، ولم تكن معركتها الأخطر بل كانت المعركة الفاصلة هو العمل بعد الجامعة.

في صدرها هدف أجمل من كل المغامرات، أو تلك الحكايات التي تقصها الرفيقات وتضعها في أذنيها رفيقة صباها سوسن كحزمة من الزهور عذبة الرائحة لكن الذبول ينتابها سريعًا وتدوسها الأقدام.

كانت تريد أن تصبح إنسانة ينحني أمامها جمال وكل الرجال الذين يعتقدون أن أنوثتها نقص وعجز. وأنها مجرد فتاة حقوقها ناقصة وأفعالها قاصرة.

ستكون يومًا شيئًا لا يجرؤ أحد على أن يصرخ في وجهها أن تسكت أو تخفض صوتها.. ستكون يومًا مالكة أمرها ، لا تضطر لطلب الإذن لتحركاتها البسيطة كزيارة صديقة أو الالتحاق بعمل أو المشاركة في نشاط يخصها ولا يهم غيرها، هي لن تعامل كشيء تافه أبدًا مثل الآن حين ينتابها القلق من معارضة إخوتها ووالدتها فكرة الالتحاق بالعمل بمنظمة

خارجية تهتم بشأن المرأة وتأهيلها لتكون عضوًا فاعلًا في المجتمع ثقافيًّا أو سياسيًّا واجتماعيًّا.

مثل هذه الأماكن ينظر لها في بيئتها المتواضعة شزرًا بنظرة ريبة وقلق.

فالمرأة مكانها في الأصل في بيت زوجها وليس عمل المنظمات والاختلاط المشبوه.

لكنها حزمت أمرها وقررت خوض معركة الاستقلال بمصيرها في ما يخص حياتها، و عملها من عدمه، قالت لخطاب وهي تحتضن ابنته الصغيرة رنا تخفي بملاعبتها القلق والارتباك:

_ خطاب أرغب بالعمل في منظمة نسوية في انتظار نزول وظائف الدولة لخريجي الجامعة.

رفع رأسه ممتعضًا وهو يقول:

_ لست بحاجة إلى العمل يا عفاف. هل قصرت معك بشيء ؟ أم هي التسلية وملء الفراغ ؟ يمكنك العمل في المدرسة المجاورة هي لصديق ويمكن إلحاقك بعمل إداري بسيط هناك.

ردت بتأثر:

_ أبدًا يا خطاب. ليس تقصيرًا منك بل هي رغبة مني أن أقوم بشيء أحبه وأتمناه. أنا لا أريد أن أعمل في أية مدرسة. بل في هذه المنظمة التي تعمل على تأهيل المرأة .

_ حسنًا ، رغم عدم قناعتي بالأمر ، سأكلم جمال ونأخذ رأيه ، وسيكون ما تريدين. كم أخت عاقلة اسمها عفاف لديّنا ؟

_ لديك رنا أجمل من عفاف وكل البنات. وضمت الصغيرة بامتنان لوجود والدها في الحياة ، تعرف رأي جمال لكنها لن تبالي بمعارضته.

******

_ ماذا جرى لك يا خطاب منذ متى بنات العائلات المحترمة تعمل في هذه الأماكن ؟

تردد صدى صوت جمال بحنق وغيظ من سلطات أخيه المتراخية في حزم هذه البنت التي لم تجد من يردعها.

_ أنا أرى أن تزوجها أفضل مثل أخواتها وتسترها بدل أن تتركها تفعل ما تشاء كل مرة ، البنت لا تحتاج سوى الستر بالزواج ، ما الذي يؤخر زواجها والعريس موجود ؟ قلتم تكمل الدراسة ؟ لقد أكملت دراستها ولم يتبقِ لها سوى الزواج ، لا تتركها تسير على هواها ، البنات لا تأتي من ورائهن سوى المصائب.

ابتسم خطاب في وجه أخيه، لقد تعود أن يراه غاضبًا لكل شيء لا يستحق الغضب:

_لا بأس يا جمال ،الحياة تتغير ، دعها تعمل ، أختك من أعقل البنات وسيأتي يوم وتتزوج وتترك كل شيء خلفها وتهتم بمنزلها وأطفالها.

ضحك جمال بخشونة:

_ حين تفيق من طيشها لن تجد أحدًا كي يتزوجها ، الرجال لا يرحبون بالفتاة التي تجوب الأرض بطولها وعرضها ويصبح لها خبرة الرجال في التعامل مع الناس. غدًا يطلق عليها لقب العانس وتندم ، ستقضي بقية عمرها بلا زوج يرعاها، أو أطفال يسعدونها، إذا استمرت بالجري وراء سخافات النساء وأنت تساندها.

كأنما العنوسة شبح يطارد الفتيات ، يرددنه كلعنة تصاب بها الفتاة المتعلمة الطموحة.

لم يسبق أن حملت فتاة في عائلتهم هذا اللقب المخيف ، إنه يشبه مرسومًا قدريًّا يصم الفتاة بعدم نيل القبول من كل الذكور ، و كل فتيات العائلة تزوجن صغارًا في السن أو أكملن تعليمهن وتزوجن. سوسن رفيقة العمر خطبت وزفافها خلال أسابيع.

لم تكن لتخاف من هذا المرسوم ، أو تخشى أن تكون أول من تفتح هذا الباب في العائلة المحترمة ، لربما تضيف جديدًا إلى بنات العائلات المحترمات فتكون أول عانس لا تأبه بالرجال أو تربط مصير بقائها على قيد الحياة بوجودهم للاهتمام بها.

******

كان اختيار قلب..

والقلوب تعمى حين تعشق..

مرت أشهر حافلة بالروعة..

تتشبع عفاف بنكهة الاستقلالية والتفرد بين بنات العائلة ، يكفي أن لديها عملًا خاصًا بها ، وأي عمل؟ إنه ذلك العمل الذي يشعرك أنك قادر على تحسين الحياة للأفضل حتى بالكلمات التي تعد وتقال في الورق والأروقة.

إنه بناء الذات أولًا كي تؤثر في الآخرين لاحقًا.

لم تترك نشاطًا ينمي قدراتها إلا انغمست فيه بحماس المتلهف إلى المزيد، وكلما أعلنت المنظمة عن ورشة عمل تعقد إلا كانت أول الحاضرين فيها.

تبحث عن المزيد من الخبرات لإذكاء تطلعاتها ، فلا تملّ من إهدار وقتها في المعرفة.

أشياء كثيرة تغيرت في قناعاتها ، ومفاهيم سقطت من حساباتها كانت قد تشربتها، عشرات من قوانين بنات العائلات المحترمة والتي كانت تخاف خرقها أصبحت تضحكها لغباوتها.

كل شيء كان يسير وفق أحلامها. لولا أعاصير القدر التي تظهر بغتة وتردي السكينة قتيلة.

هناك التقته..

لم يكن رجلًا فحسب، لقد كان زلزالًا بأعلى درجات مقياس رختر ، وكانت ضحيته بملء إرادتها.

الأستاذ حازم مسؤول المشروع الجديد، والقادم من مدينة السحر والجمال مدينة "إب "لم تكن لتلفت انتباهه تلك الفتاة المنقبة والخجولة، والتي ارتج صوتها كثيرًا حين أبدت بعض المشاركات خلال العمل فقد كانت مدينته الريفية تكتظ بهكذا فتيات خجولات وفوق هذا جميلات جدًا ، ربما لو كانت فتاة سافرة بجُرْأَةٍ كافية لمشاطرته الحديث والمزاح ربما كانت ستلفت انتباهه.

لم يكن ليحدث لو لم تصر هي على ذلك بذكائها ومثابرتها في جذب انتباهه ، رأته جديرًا بالدراسة كرجل مختلف، أسلوبه في التعامل مع الآخرين أشد ما أعجبها، كان روحًا مرحة ساخرة بعذوبة، لكنَّ عينيه الحنونتين أكثر ما عصف بها، فيهما تلك النظرة التأملية الحزينة الآسرة ، لا تشبه كل النظرات التي صادفتها في حياتها ، كانت أيقونة حنان زاخرة بالحزن ، لقد كان مؤثرًا بطريقة خطيرة تستدعي الفهم.

لم يكن وسيمًا بتلك الطريقة التي تنفرها أكثر من الرجال، بل كانت ملامحه تستوقف عينيها للتأمل واكتشاف الجمال تدريجيًّا ، ذلك الجمال الداخلي الحنون و الجاذب.

هل كانت مراقبتها له بداية التحول من فتاة تعادي الرجال إلى أخرى تسعى جاهدة كي تحوز على إعجاب أحدهم.. واهتمامه ؟

******

من السهل على أنثى ذكية أن يقع في مجال تردد سحرها الرجال.

كل الرجال.

وحازم رجل في الأربعين، ذلك العمر الذي يبدو فيه الرجل كالمتعطش لآخر جرعات نزق الشباب ، إلى مغامرات تقول له: أنت ما زلت شابًا تقع الفتيات في غرامك!!، رغم ظهور تلك الشعيرات البيضاء على جانبي رأسك ورغم امتلاء حياتك بزوجة وأطفال، إلا أن الحب كالحرب إذا استوجبت أسبابها تصبح ملحمة.. وضحاياها القلوب.

الحب..

لا يقع الرجل فيه؛ إنما يقف محددًا الهدف وحجم الخسائر ، يتناول بحسابات عقلية خسائره ويستعد للربح منها، هكذا هم الرجال لا يخسرون إلا ليربحوا.

أما المرأة فتقع في الحب على وجهها فعلًا، وتطمس كل حواسها الحذرة ، وكل تنازل منها وقوع من عليائها ، تخسر حتى نفسها أحيانًا ، وفي سبيل الحب يمكن أن تضع العقل جانبًا وتتنازل عن بعض المبادئ من أجل تحظى بقلب رجل ربما يتخلى عنها بسبب تخليها عن مبادئها.. هكذا ببساطة.

قد يكون الحب من قِبل رجل يعيش عصره الذهبي مجرد لعبة في أوقات الفراغ والشبع ، ويكون جوعًا وقت الحاجة والعوز، يكون دافعًا وغاية.

أما الحب من قبل امرأة فهو عهد وميثاق عطاء بلا حدود واختيار قلب مهما كانت مساوئه.يظل سر القلب الخفي، وأكثر حوادث العمر ألمًا وفرحًا.

و أجمل موعد تأخذنا إليه المصادفة.. حين يأتي القدر على صورة زلزال دهشة قلبية وصعقة عشق.

******

هكذا أسرها الحب لأول مرة في معركة بينها وبين نفسها.

صراع العيب والحياء المسيطران عليها أنهكاها، تخشى الاعتراف أنها تحب رجلاً أخيرًا..

سقط العداء الأزلي.

وتوقفت عن إسداء النصح لنفسها أن هذا الأمر لا يليق بفتيات الأسر المحترمة.

توقفت حواسها عن إصدار التحذيرات، واستقبلت شعورها الجديد بلا تحفظات كحقيقة لن تخافها أو تحاربها ، بل انقادت لإملاءاتها المجنونة في خدر عشقي واستكانة قلب.

إنه الحب..طوفان يجرف أمامه عوائق صنعناها نحن البشر لنقيد فطرة الانتماء للنصف الآخر، عوائق زادت من تعقيد الحياة ولم تفلح في إصلاح

أخطائنا الشائنة، كلما وضعناها ابتعدنا أكثر عن الصواب كردة فعل لرفض خفي لها.

الحب تفاعل روحي و كيمياء طبيعية يجب أن يحدث عند التقاء شخصين اختارهما القدر كموجب وسالب..

إنها كيمياء العشق..

تفاعل حقيقي نرى آثاره في كل شيء يخص عاشقين ..

نظرات العيون التي تتحدث بلغة فصحى لا تحتاج إلى مراجعة لغوية أو تفسير أو هوامش، ارتجاف القلب الذي يسمعه كل كائن في الأرض إلا من نحب ، تلك الرغبة الكاسحة في الانتماء إلى روح المعشوق كنصفين يجب أن يكتملا ، تلك الشرارات المضيئة في سماء القلب كلما التقت العيون أو تناهى إلى الحواس وميض الصوت كالأجراس في كنائس الناسكين.

تلك اللمسة الخاطفة التي تفجر البراكين في الجسد وتحيله إلى رماد بعد ذهابها..

كل شيء يؤدي إلى طريق واحد.. نزف القلب حتى التماهي حبًا.

ولقد فاض قلب عفاف بالحبّ لأول مرة كما تفيض الأنهار العذبة ، فأغرق حواسها وتعقلها وكل السدود التي عمّرتها كالقنادس للفيضانات المفاجئة..

كل شيء اكتسحه طوفان الشعور حتى قوانين بنات العائلات المحترمة.

إنما يعصف بها الخوف والحزن..

أن يكون قلبها هو الذي يهذي كالمحموم بحب من طرف واحد ، فالرجل مهما بدا من اهتمام منه لا يتعدى اهتمام الرجل المهذب بفتاة وزميلة عمل ، تخشى أن يخطئ حدس الأنثى الغارق في الحب في تفسير تلك النظرات المتلهفة لقدومها ، أو تلك المختلسة كلما رفعت رأسها لتصدمها بشرارة صعق قلبية.

كل شيء كان معلقًا بخيط رفيع للوهم..

حتى اقترب منها ذات صباح، فتغير معنى الصباح إلى بقية عمرها، فصباح الانتظار له نكهة الاكتئاب البارد وصباح فيه لقاء مفاجئ يغدق هداياه المشتهاة يصبح صباحًا مقدسًا، تلاحقك ذكراه إلى آخر العمر كشبح حبيب غاب قسرًا أبتسم قائلًا:

_صباح الخير..

كل شيء فيها صرح صامتًا: صباحي أنت يا حازم.. ما عدا لسانها اعتقلته الرهبة والفرح.

قال دون مقدمات:

_ هل أحظى برقم هاتفك يا عفاف.

فهمس كل شيء فيها لاهثًا بترقب:

_ طبعًا.. لي شرف ذلك.

ولها مزيد من الأحلام والأمل، وانتظار من نوع آخر ربما يكون أشد فتكًا بالقلب ، إنها لعبة الأنثى والرجل الأزلية..ترقب وانتظار.

لقد وقفت قبالته مرتعشة تفتح بابًا مغلقًا من أبواب العائلات المحترمة، وتنتظر بشغف متزايد رنة هاتفه ، وتلك الأرقام تظهر على شاشة هاتفها كأنها تحكي قدرها المنتظر.

فهل تعشق الأرقام ؟..

نعم.. وتعبد حين يصل الحب المنتهى.

لا شيء يشبه ابتسامته في خيالها إلا إضاءة شاشة الهاتف معلنة وصول الهواء في كبسولات حروف وكلمات.

ماذا فعل بنا تطور التقنية في التواصل؟

حين ترتبط شرايينك ومعدل نبض قلبك وتنفسك بصفائح إليكترونية، ارتبطت بمجموعة أرقام تعمل على إنعاش قلبك كلما أوقفه الانتظار والشوق.. تظل تمد روحك بتردد لاسلكي خفي، ينتفض له القلب كلما أشرقت الإضاءة.

هكذا مرت أيامها في علاقة بدأت تأخذ شكلًا خطيرًا ومشعًا أضفى عليها هيئة وروحًا مختلفة كأنما الحب يصنعنا من جديد.

لكنه الصراع بين ما ينبغي وما لا ينبغي، بين الثبات على قوانين تربت عليها وتشربتها وبين رغبة قلب تكاد تطغى عليها.

ما كانت لتقدر على هدر سمعتها أثناء العمل بحديث جانبي معه أو لقاء خاطف، ولا هو كان ليفعل، لكنها تحمّص بنار حب وشوق تحت رماد الخوف من كلام الناس و مراعاة واقعها المحافظ جدًا، في حين ترى جراءة

بعض الفتيات مرعبة لها، وقد رفعن كلفة النوع في تعاملهن مع زملاء العمل.

كان لابد من لقاء خاطف كمسكن شوق جارف، لذا حين أبلغها أنه بانتظارها في شارع جانبي بسيارته كأول مغامرة عشق دفنت التردد بلا تردد، حين دعاها إلى ركوب سيارته لأول مرة، وقفت هناك تسأل نفسها بتوتر:

(هل بنات العائلات المحترمة تركب سيارة رجل غريب لا يمت لهن بصلة رحم ؟ هل يرضي أهلي هذا التصرف لو عرفوا ؟

لكنها ركبت السيارة..

وانطلقت في حديث مندفع يفضح سعادتها بقربه، ويخفي خوفها وتوترها، تبرر لنفسها غرابة نفسها عنها بقولها بمرح متوتر:

_ يجب أن يغامر الإنسان ولو مرة واحدة ليجرب شيئًا مستحيلًا ، لا أصدق أنني فعلتها.

ضحك حازم بمرح وهو يقول:

_ستفقديني التركيز على القيادة، ولن يغفر لنا أحد كونه حادث حبّ.

حادث حبّ..

لكنها لا ترغب في أي نوع من الحوادث التي تفضح جراءتها في مغامرة شرف وليس مغامرة حبّ.

في حيّ هادئ أوقف السيارة، والتفت نحوها يحدق في عينيها بشوق، همس بحنو: _ ارفعي النقاب كي أراكِ.

كالعادة منذ التقته ، أزاحت عددًا من قوانين العائلات المحترمة جانبًا ومدت كفًا مرتعشًا يرفع النقاب عن وجهها.

ابتسم مشجعًا ولم يتكلم.. كانت عيناه تقول الكثير.

أدار عجلة القيادة بصمت، وأسدلت النقاب برهبة وتحركت السيارة عائدة إلى حيث تستقل سيارة أجرة عائدة إلى البيت.

****

_ لم تعودي صغيرة يا عفاف ، ستدخلين عامك الخامس والعشرين وهو أنسب وقت للزواج والاستقرار ، لقد تقدم لك خالد ابن العم يونس،هو شاب فيه كل ما تتمنى الفتيات.

أنهى خطّاب جملته وهو يشد كتفيها بحنان الأب.

جميل أنه لا يرى ذلك الوجه الذي ملأ خيالها، بل هي نعمة أنه لن يتمكن من قراءة أفكارها عن الزواج بمن تحب حتى وهو يكبرها بسنوات كثيرة ويبعده عنها عائلة وأبناء.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تحّني رأسها بخشوع ربما كي تستدر عطف أخيها:

_ لا تغضب يا خطاب. أنا لا أرغب في الزواج الآن ولا أريد خالد هذا.

زفر بحرارة وهو يقول:

_ لماذا ؟ لقد بدأت أقلق من رفضك الزواج بلا مبرر.

_ هل سئمت وجودي في بيتك يا خطّاب ؟ دعني أهتم بأمي في عجزها، أنا لا رغبة لي في الزواج إطلاقاً.الفتيات بدون زواج يملأن البيوت ، لماذا أنا سأبدو مقلقة لك ؟

همس بحرارة:

_لأني أحبك يا أختي ولا أريد أن تعيشي شبابك بلا زوج ، رغم تعلق أمي بك إلا أنك يجب أن تتزوجي يومًا.

_ ليس اليوم يا خطاب _ همست ضاحكة _.. ربما ذات يوم.

******

هل يقال كما في الروايات ؟

مرت أيامها فوق غمام الشعور بالحب لأول مرة ، تتذوق أحاسيس حتى المؤلم منها مسكر ولذيذ ، تختبرها كالوهج الذي يعمي البصر لوهلة، تكاد تذوب وتذوب لمجرد التفكير به.. لها هي.

تخاطب نفسها أحيانًا: هو متزوج وأب، قلبه ممتلئ بالقلوب الصغيرة والكبيرة ، لو أفسح لي في قلبه قطرة حب ستكفيني فلا أشعر بالظمأ.

كلما التقته تلاشت ثقتها بنفسها ، كما تفقد الشموع صلابتها في حرارة البراكين المشتعلة.

تتمنى لو تحادثا فقط وجهًا لوجه.. فساعات العمل مزدحمة بالعيون والرقباء ووكلاء العفة والشرف، تتمنى أن تحادثه فقط كما يتحدث صديقان يمكنهما سرد الحكايات والضحك على الأحداث، وتبادل الآراء في أفكارهما وميولهما.

لكن أين وكيف تلتقي فتاة برجل دون أن يصنف اللقاء بالمشبوه ؟

كيف يمكنها أن ترتوي من حديثه أو تتشبع بنغمة صوته ؟

لم تعد رسائل الهاتف تشبع نهمها إليه، أو تزيد في معرفتها لعاطفة جمعتهما ، تريد أن تسمع تلك الأحرف المتوهجة ناطقة وهي تنظر إلى عمق عينيه فترى الصدق الذي تتمناه. تتمنى أن تهمسها في أذنه فيشعر بمدى قوة هذا الحب.

_ أحبك.. تبدو كلمة ميتة حين تأتي عبر الأثير..لا أنفاس متقدة تشعرك بنيران هذا العشق.. كلمة تحتاج إلى إنعاش كضربات القلب ما لم تهمسها في فم من تحب أو في أذنه..

الحواس فقط هي رادارات الحب ومقاييس درجات ارتفاع منسوبة.

العيون فقط هي جهاز كشف الحقيقة من الخداع.

وقفت هناك تنتظر مروره بجوارها أمام البوابة الكبيرة، تعرف أنه سيمر ويحادثها في مكان عام بحديث عابر كعادته.

سيسألها كيف حالك ؟ وربما يسرف في العطاء ليهمس بصوت خفيض:

_ أشتاق لابتسامتك تلك..

اقترب واقتربت معه الفصول الأربعة بتقلباتها المناخية ، وعصف بجسدها حر الصيف وريح الشمال وبرودة الشتاء ، أخيرًا همس بصوت هادئ:

_هل يمكننا أن نلتقي في أي مكان خاص لنتحدث ؟

تدرك أن بنات العائلات المحترمة لا تلتقي بأي أشخاص غرباء في أي مكان خاص لكنها قالت على الفور:

_ أين ومتى ؟

_ جيد.. سأرسل لك العنوان في رسالة إنه مكان معروف.. نلتقي إذًا.

لقد بحثت في لائحة القوانين الخاصة لبنات العائلات المحترمة عن بند يتيح لها لقاءً مع هذا الرجل الذي أسقط كل قوانين العقل ليحل بدلًا عنها قانون واحد هو قانون الحب.

و لم تجده سوى في هذا الأخير.

إنه السحر..بكل ألوان الطيف..

******

في المساء..

في حجرة الجلوس وهي تتأمل وجه خطاب المسترخي بين طفليه وقد تعلقا بعنقه وبين ذراعيه ، فكرت في حازم.. لعله هكذا يستلقي بين أطفاله ويفكر بها أو بهم..

كيف يبدو حين يسترخي في بيته بعد يوم عمل شاق، ماذا يرتدي غير أناقة العمل التي تذيب قلبها كلما لاح أمامها ؟

كيف يبدو حين ينام أو يصرخ على أطفاله ؟ كيف يبدو حين يحتضن زوجته بحنان ؟

كم يؤلمها إسراف الخيال هذا في تفاصيل حياته..

لماذا لم يلتقِ بها هي أولًا ؟ ولماذا عليها أن تفكر في سرقته من عائلته ؟

امتلأ قلبها بالوجع. وأطرقت تسمع الحديث الذي يدور حولها كالغائبة في بعد آخر ، لماذا شاء القدر أن تحب رجلًا ليس لها ؟

_ عفاف.. عفاف.. أين أنتِ ؟ ما بكِ ؟

استفاقت من شرودها تحدق في خطاب كأنه ظهر لتوه:

_ لا شيء يا خطاب متعبة من الوقوف طوال الصباح في العمل.

_ لم يرغمك أحد على هذا المجهود يا أختي. انظري إلى نفسك كم يبدو الذبول عليك والشرود ، توقفي متى شئت واهتمي بنفسك.

آه "خطاب"..

لعلك أجمل من خلق الله يا أخي، لو أستطيع أن أشكو لك وجع قلبي وترشدني ، لكن الأمر مستحيل ، أنت لن تقوم بدور لم تهيأ له أبدًا ، أنا هنا شيء يجب أن تحافظ عليه حتى من علاقة حب وأنا يجب أن أحافظ عليك فلا ألطخ سمعتك بجريمة حب ".

همست عفاف بوهن:

_ العمل يسعدني يا خطاب ، لا تهتم فقط قلة النوم و مشاكل السهر المعتادة ، سأنام وأكون في الغد في أحسن حال.

اطمأنت على والدتها النائمة في الحجرة المجاورة لحجرتها ، كانت في رقدتها تشبه طفلًا يحتاج إلى حنان أم بعد أن كانت أمًا أنهكها الحنان على أولادها.

تعرف أنها ستتلقى رسالته الآن بمكان اللقاء وموعده.

تركت الهاتف في وضع يقابلها كأنه شخص يفضي إليها بسر مخيف.

كان الأمر مخيفًا فعلًا ويحتاج إلى جنونها أو جنونها ولا شيء آخر.

سيضيء فتتذكر ضحكته حين يضيء أرجاء قلبها.

سيضيء فتعجز عن فك الرمز السري الذي ابتدعته فرارًا من عمر الصغير حين يختطف هاتفها ليلعب أو يستمع لأغانيها الخاصة.

سيضيء وتنام لليلة أخرى تلفها أشعة القمر الفضية في حلم يقظة يجمعهما بلا عوائق أو حدود فاصلة أو نقطة انتهاء.

وأخيرًا أضاء مشفقًا على جفونها التي تخشى إفلات اللحظة من الاستمتاع بالوصول الأجمل فظلت شاخصة لا ترف.

قرأت الرسالة مرات ومرات..

هل كتب "حبيبتي.. عشقتك ولا خلاص".

نعم.. كتبها ، وستذهب من أجله خلف الشهب الضائعة في السماء.

ولا تريد الخلاص.. لا تريد الخلاص.

******

الأيام لا تتشابه في أزمنة المحبين.

فكل يوم فيه جديد، نفحة فرح أو سكرة ألم أو الاثنين معًا ، واليوم في حساب عمرها يتقد على نار هادئة، فعصرًا يكون اللقاء ، وقد رتبت لخروجها بدقة بمساعدة ابنة الخالة سوسن.

لن تستعد للقاء سوى بزينة العقل، هذا الذي ينقصها الآن وتحتاجه بشدة فالقرار مجنون منذ البداية.

قرب المكان المحدد هاتفته كي تعلمه بوصولها، ورأته قادمًا نحوها بخطوات ثابتة وابتسامة متألقة.

_ أهلًا بك ، كيف أنت ؟.

احتوت عيناها كل ذرات جسده بحب وشغف، تحادث نفسها كعادتها دون صوت:

" أنا أذوب في وهج حضورك؛ فحين يطالني ضياء وجودك أتلاشى فيك.

أنا هالة من ذرات عشق يدور معناها حول رضاك.."

و لم تكن تتمنى منه سوى الكلمات..

كلمات فقط تحول أوهامها إلى حقائق وهو لا يتقن شيئًا كالصمت.

حاولت الاسترخاء وهو يقودها إلى طاولة منفصلة بسواتر خشبية أنيقة تفصل الطاولات.

إنها هنا.. ستعيش هذه اللحظة وكفى.

_ سأحضر مشروبًا باردًا.

في غيابه نزعت النقاب ووضعته على المقعد المجاور كما تضع قناعاتها جانبًا هذه الأيام.عاد يحمل بين يديه شراب البرتقال ويناولها الكأس بابتسامة مشجعة،

ماذا يمكن أن يقال الآن ؟

هي بالكاد تستطيع رفع نظراتها إليه، لكنها تريد أن تسمعه هو ، يخبرها عنها وعنه، لقد تبادلا كلمات الحب في رسائل كثيرة، وماذا بعد؟

همس قاطعًا امتداد شرودها:

_ لقد شعرت بحاجتي إلى الكلام معك، وحاجتك أيضًا ، فهل نتحدث بشكل واضح يا عفاف ؟

تلك الجدية التي سُكبت مع حروف كلماته تناثر لها كل الكلام الذي جمعته في مخيلتها فلم تجد سوى إيماءة تعبر بها عن القبول بما لا تدري.

كانت نظراته الحزينة تسبق كلماته في وصف حيرته:

_ أنت رائعة يا عفاف وتستحقين الأفضل ، تستحقين رجلاً لك وحدك ، لا رجلاً تكاثرت مسؤولياته والتزاماته، لا أقول إنني لا أحبك أو أتمناك لكني أيضًا لا أعدك بزواج وحياة جميلة.

وصمت..

وأصبح الصمت ثقيلًا على كاهل الكلمات، فتمنت أن يقول إن عبارته دعابة وليس اغتيالًا لأحلامها وهي تنظر وتسمع.

هل تسعد لأنه يحبها ؟ أو تأسى لأن حبه لا يحدث فرقًا..

لكنه برر تصريحه القاسي كثيرًا وكان محقًا في حديثه الهادئ الرصين ، وكأنه يتنصل من تبعات علاقة حب محسوم أمرها بالنسبة إليه ، وكأنه يخيرها بين قصة حب عابرة إلى أن يأتي وقت رحيله عن مدينتها، أو تشرع هي بالرحيل عن حياته.

لقد أفرغ حاجته من الكلام في وجهها، وكان يجب أن تتحدث هي بحاجتها إليه، لكن الحديث عن شيء لم يعد متاحًا ضرب من الغباء لا يليق بها.

فاختارت الصمت يوشحها بالاتزان الذي يتلاشى في أعماقها.

_ عفاف أعتذر لقلبك الجميل، أعرف أني خدشت روعة أحلامكِ بصراحتي.

"خدشت !!

لا.. لكنك سحقت بذور الحلم فلن أزرعها من جديد.

_ قولي شيئًا يا عفاف ، أقسم أني أتمنى أن يتغير الحال ، فالأمر ليس سهلًا علي أنا أيضًا.

هل يترك بعض بذور الأمل هنا ؟ هل يفعل ؟

أخيرًا أفلت لسانها من اعتقال الصمت ليسأل دون وعي:

_ أي نوع من التغيير يا حازم ؟ في تفكيرك عن معنى الحب، أم في وضع حياتك وعائلتك ؟

_ صدقيني لا أدري، لم أعد مراهقًا لأترك كل شيء خلفي من أجل قصة حب.

_ وأنا سأترك أي شيء من أجل هذا الحب.

_ لا أعدك بشيء..

_ لا أريد منك وعودًا. حين وهبتك قلبي لم يكن هناك وعود أو اتفاقات.

_ حتى قلبي يا عفاف لم أعد أملكه منذ زمن..

_ أنا أملك كل مشاعري. وستكون لمن أريد..

_ لا أدري ما أقول لكِ يا عفاف ،أنت ترين الحياة من خلف غلالة الحب الوردية ولكنها متقلبة الألوان والحالات.

_ دعني كما أنا ولتكن كيف شئت، ربما هذا قدري، أن أحبك أنت.

_لا أريد أن أكون سببًا في شقاء من منحتني السعادة أبدًا، لا أريد أن يصبح الحب نقيضه ذات يوم.

هل كانت تعبث بالوهم أم يعبث بها الحلم أن يأتي يوم ما يرضخ هو لحكم الحب ويعلن الاستسلام.

وهل تستطيع هي التوقف بإصدار حكم باللا حب ؟

لم تكن تتخيل أن يكون لقاؤهما الأول بهذه الدموية العاطفية، رفض وانصياع للرفض ، وإعلان غير مسبوق للذل.

رأسها المنكس والدموع المتأرجحة في حدقتيها لم تكن مخاوفها المرتقبة في هذا اللقاء، كانت مخاوفها أخرى ، لكن حتى الأحزان والمخاوف لا ننتقيها بل تنتقينا هي بعناية كما ينتقي المرء رفاق الحياة.

أفاقت من شرودها على قبضة يده تعتصر كفها المستلقي بلا شعور على الطاولة ، كانت أصابعه الطويلة النحيلة تتخلل أصابعها المرتجفة بحنان.

لم تفكر في سحبها حتى..

بل استكانت لكفه المبسوط على كفها بشوق؛ ربما تقول له خطوط كفها إلى أي مدى تعرّق حبه في الأوردة والقلب.ربما ينتصر لها القدر من هروبه المسبق.

قطع الصمت صوته الأحب وهو يهمس:

_يجب أن أعيدك إلى المنزل ، تأخر الوقت.

نهضت بحرج وهي ترتدي نقابها على عجل ، قائلة:

_ لا عليك ، أعرف كيف أعود بمفردي.

صافحت يده الممدودة بسرعة تخشى اعتقال اللحظة أو اختفاءها بعد ملامسة خاطفة تمنت ألا تنتهي.

******

_أحبه يا سوسن..

_ تحبينه ما الذي يجعلك تكررين هذه الكلمة من أجل رجل يقول لك بوضوح ؟: _أن لا حياة ستجمعكما ؟ ما بك يا عفاف لم أر رجلاً أقبح صراحة منه ؟ دعك منه فالرجال حولك كثير ، وخالد رجل تتمناه كل النساء وهو راغب بك كثيرًا.

أنهت سوسن جملتها وهي تجلس بثقل شديد بجوارها ، كانت في الشهر الأخير من حملها المرهق ، ويزيد من إرهاقها دموع عفاف وهي تتناثر في يأس وإحباط.

سوسن تبدل أسلوب تفكيرها منذ أصبحت زوجة وقريبًا أمًا، أصبحت تنظر إلى علاقات الرجال والنساء كأنها روتين يومي لابد من حدوثه، ولا

يحتاج إلى كل هذا الشغف والحزن ، مهما كانت العاطفة متقدة ومتلهفة فالحياة بهمومها ومشاغلها كفيلة بالقضاء على هذا التأجج.

ربما لأنها قبلت بأول خاطب جاء به الأهل ، ولم يسبق به أي معرفة قبل يوم الزواج ، ربما لم تجد ما يستدعي القلق من مصير محتوم.

هزت رأسها غير مصدقة الحزن الذي وصلت إليه ابنة خالتها من حالة حب ربما لا تستمر لو اكتملت بزواج ، فالإنسان كائن ملول بطبعه ، وقد يتسرب الملل حتى إلى قصة حب توهجها محرق.

حالة حب أصبحت أشبه بحالة مرض عضال يفتك بجسدها وروحها فما أغناها عن هذا الحب لو كان لها اختيار.

_ وماذا بعد يا عفاف ؟ لو كانت الدموع ستحضره أخبريني؛ أو كما غنى حليم أبكي العمر عليه ، لو أحبك حقيقة ما قطع الطريق على علاقة تنمو، ربما لو ترك لكما فرصة ستتغير أمور كثيرة.

هذا ما تتمناه حقيقة فرصة حبّ. همست من خلال الدموع:

_ ما زلت آمل أن تتغير أمور فعلًا ، أنا لن أقول لقلبي توقف عن ضخ هذا الاحتياج له فهذا القلب ليس صنبور ماء ، وليس مطرًا صيفيًا ستنقشع غيومه وينتهي موسمه ، إني أحبّه كما لم أتخيل أن تحب النساء الرجال ، أحبّه ولا أصدق أنه لن يكون حقيقة في حياتي ، أو أن يأتي يوم وأقول كان هنا.

وماذا يفيد البكاء ؟

لعل حصار الحب يكون أجدى ؟

لو استنشقني حوله كالهواء.. وكنت مثل الصباح في حياته كل يوم وكنت كقدوم المساء بالشوق والحنين ، ربما يدرك مقدار هذا الحب ويقبلني في حياته كيفما كان.. ربما.

******

هذا الرجل مختلف..

فهل هناك أقوى جاذبية من شيء متفرد ، يتحدى فضولك ورغبة الاشتهاء لديك لكل جميل ؟ فيه سحر رجل غريب، يتحدى عاطفتها البكر للاقتراب من المحظور..

يحرك فيها أكثر من رغبة.. رغبات لم تكن حاضرة في مخيلتها نحو أي رجل، هي تشتهي الالتصاق به كنصف يكملها روحًا وجسدًا، فهل لها حياة بنصف روح ونصف جسد ؟

تعاني نقصًا دائمًا لصوته، لنغمة ضحكته، لرؤيته، فهل الحب جوع دائم لا يشبع، وهل الخيال سوى بهارات تذكي حالة شوق وجوع متأجج ؟

لم يمثل لها الرجل سوى أب غائب ، أو أخ متعنت ، أو عشرات العيون لرجال في بيئتها تحاصر بفضولها كيان المرأة ، وتكاد تخترق بهواجسها ما تحت ثيابها أو ما تفكر به في دواخلها، وأخيرًا عشرات القوانين التي سنها الرجل من أجل الحفاظ على هذه المرأة من وجهة نظره.

ولا بأس إن كانت لتهميش أو تحطيم هذه المرأة.

لكن حازم بدا لها مختلفًا، ربما لكونه رجلاً مثقفًا، ذكاؤه متقد جاء من مدينة تلقب بالخضراء، فمدينة إب رجالها ونساؤها أقرب إلى جمال الطبيعة التي تشتهر بها مدينتهم، أكثرهم سماحة ونقاء، أحبت مدينته كما أحبته وأحبت كل شيء يخصه.

كلما جاء على ذكر مدينته بين زملاء العمل رق صوته كأنه يخاطب حسناء وادعة في أحضان جبل "بعدان"، يتحدث عن أطفاله الأربعة بشوق الأب وتفهم الصديق. قال لها مرة وهما يرتقيان درجات السلم إلى الطابق الثاني للمؤسسة:

_ لقد أصبح لدي مراهقان في البيت مؤيد ومؤمن يتنافسان على إرهاق أمهما في غيابي، لم أكن أتوقع أن يطول ابتعادي عنهما لشهور، ولم تعد الإجازات تكفي لفض النزاعات بينهما.

يومها تخيلت نفسها زوجته. وولداها مؤيد ومؤمن يملآن اتصالات والدهما صخبًا وشكوى ، ولا يتركا له فرصة كي تقول له: أحبك وأشتاقك فمتى تعود إلى المنزل ؟

تخيلته كثيرًا..

حبيبًا وعاشقًا لها هي ، وزوجًا وأبًا لأطفالها هي..

كانت تجد في أحلام اليقظة متسعًا فضفاضًا لملء فراغ شوقها إليه.

فتمزج بين حكايات واقعه وعالمها السريّ ، كما مزجت بين طفولتها ونضجها.

لشهور طويلة تكبر أحلامها وتورق ويصبح لها جذور عميقة في مخيلتها فتغدق عليه حبًا يفوق خياله هو.

تحفظ تفاصيله الصغيرة أكثر منه ، وتجمله في عيونها أكثر من توقعه.

كان الحب البكر ككل ثمر في طرحه البكر كأجمل ما يكون الحب.

******

وللألم عطر فريد علق بأطراف قلبي حتى تفتت..

فكرية..

_هل أذهب إلى لقائه مرة أخرى يا سوسن ؟ أنا خائفة هذه المرة أكثر ، لم أنس كلماته في المرة السابقة ، ماذا سيقول لي يا ترى كي يلح على لقاء خارج العمل ؟

قالت سوسن وهي تلقم الرضيع ثديها:

_ ربما أخيرًا سيطلب منك الزواج ، ألم تقولي أنه يحبك ؟

_ لا أدري ، ربما لا.. ربما يكون أقسى من تلك المرة التي قال إنه لا يعدني بشيء.

_ إذًا لا تذهبي ، الرجال لا يهمهم سمعة النساء ما دمن يذهبن بأقدامهن ، أنت لن تمثلي له سوى رقم يضاف إلى رصيد مغامراته، لكن أنت سمعتك وشرفك كالزجاجة فلا تكسريه أو تلوثيه.

_ لا أقدر يا سوسن ، أنا أحبه وأثق فيه إلى أبعد حد. أشعر أنه يخاف علي مثلي تمامًا.

_ ربما لأنه أدرك أنك ساذجة وبريئة. بجوار اندفاعك وطيشك ، فكري مرتين يا عفاف ، بل ألف مرة فإخوتك لا يستحقون ما تفعلين بهما، تذكري خطاب كم يجازف من أجل إرضائك. تذكري جمال ووحشية تصرفه لو عرف بأمرك.

" ما كل هذه الحيرة " ؟

أن لا تذهب وتحرم حديثًا خاصًا ودافئًا معه أمر لا تطيقه !!، كان لقاؤهما الوحيد قبل شهرين ولقسوة تصريحه صار من الصعوبة أن يتكرر ،

كم تمنت لو طلب منها اللقاء مرة أخرى مهما كان كلامه مرًا. لكنها عاندت كبرياءها أن تطلبه بنفسها. فهل ترفض الآن وقد ذكرها بلقاء خاص وحدهما ؟

لا تدري من أين تأتيها كل هذه المخاوف ؟ رغم حرصها أن يكون لقاؤها به في سرية اللقاء الأول وربما أكثر.

بدأت تصدق أنها طائشة ومجنونة، لكن الجنون له مزاياه أيضًا ولا بأس من جرعة صغيرة منه في العمر لا تؤدي إلى جنون كامل.

ألم يقل مصطفى محمود: "أن الحب هو الجنون المعقول الوحيد في الدنيا"

******

_ أشرقتِ أخيرًا..

قالها وهو يفتح باب السيارة، لقد انتظرها أمام المركز التجاري لنصف ساعة كاملة، تساءل خلالها عن صوابية ما يفعل !!، لكنه مسؤول بطريقة أو أخرى عن هذه الفتاة وعن مشاعرها المندفعة نحوه.

_ أنا خائفة ومرتبكة..

_ لا تخافي كل شيء على ما يرام ،سنجد مكانًا منزويًا نتحدث فيه، فلدي حديث مهم يستحق جلسة مطولة !!.

دائمًا يجيد غرس بذور الشك والخوف في أرض قلبها الصالحة لزراعة المخاوف ونموها، ما دام سمادها أفعالها الخاطئة والمتهورة !!.

لكنها لم تسأله ما نوع الحديث المطول هذا ؟هل هو جميل أم موجع ؟

تخشى أن يراها كالأطفال في استشرافها للأمور، فهو لا يعلم أن قلبها قد عاد بين يديه طفلاً يتعلم كيف يحبو حبًا وشوقًا.

إنها هنا وهذا يكفي..

لحظات تسترقها من غيب القدر فلتعش هذه اللحظة كما تتمنى هي ، تتأمل جانب وجه الحبيب بحنان،والشوق يعصف بها إلى ملامسة تلك التقاطيع ، تتأمل يديه على مقود السيارة تتمنى أن تقبضها بين أصابعها وتقبّلها إصبعًا إصبعًا، كم تحب كل تفاصيله ولفتاته وكلماته..

أوقف السيارة في شارع جانبي أمام إحدى العمارات، والتفت نحوها مبتسمًا تلك الابتسامة التي لم يخلق الله مثلها في عينيها..

الهواء الساكن بينهما.. ونظراته الحنونة وارتجاف قلبها، حضور كله يشهد لحظة اللا وقت، كان محسوبًا من ضعفها، تلك اللحظة التي التقطت أصابعها كفه فسرت رعشة في كل روحها، رفعتها بحنان لتكون بين نقابها وأنفاسها المتلاحقة، وطبعت شفتاها قبلة عشق مؤبد على راحة يده.

التقى حاجباه في تأثر كبير، لكن نظراته لم تسعد باستكانة الحب هذه، كانت نظراته تخفي بعضها في تواطؤ متفق عليه.

"ماذا تخفي نظراتك يا حازم ؟ هل الشفقة والعطف ؟ أم نظرات الرجل الذي أخافه كل هذا الحب ؟ أم استنكار هكذا فعل ؟"

وهل يخاف من الحب ؟

نعم يخاف الرجال الحب إذا أتى على هيئة إعصار جارف يكتسح العواطف المتصنعة التي تخلق للعبث والتسلية وتمرير الوقت.

لقد كانت في حبها له ظاهرةً عاطفية نادرة الحدوث ليس إلا..

ما استطاعت مجسّاته أو راداراته العقلية رصدها أو التنبؤ بحدوثها، ولا استطاعت مقاييسه الخادعة ضبط درجات تدفقها العاطفي.

حتى حيوان الغابة فيه كان أول من عشقها منه و تلهف لقدومها الطاغي.. كانت حبًا لا يشبهها إلا هي..

تحبه..

ولا تبالي كيف يفكر نحوها، لن ننتقي قلوبًا نعشقها لتكون على قياس مقاماتنا في الحب ، نحن نحب لأن قلوبنا التي تحلق هي من اختارت أغصانها التي تسكن إليها وتستقر.

ترجل من السيارة ونزلت خلفه، أمسك بيدها كمن يقود أعمى، إنه عمى الحب الذي يجعلها تلحق به في صمت إلا من انتفاض قلبها بين ضلوعها، صعدا السلالم بسرعة ، ربما يخشى كل منهما التراجع.

كانت الشقة صغيرة ومرتبة رغم أثاثها المتواضع، ربما وهو يطوف بها حجرتي سكنه يحاول فرض طبيعية للأمر ، لكنها وهي تلحق به تتخيل أن هذا المكان صغير جدًا ليحتوي حبها الكبير لهذا الرجل.

_ اجلسي سأصنع لنا شايًا كي نتحدث على أنفاس كؤوسه.

جلست بصمت كما طلب ، تخشى أن تسمع صوتها في بيته، فتتساءل لماذا وكيف أتت؟

تذكرت مقولة قرأتها "لنيكوس كازانتراكيس عندما قال" إن لكل إنسان حماقاته؛ لكن الحماقة الكبرى في رأيي هي ألا يكون للإنسان حماقات".

لعلها ترتكب حماقة العمر.. إنها من الحماقة ألا تفعل..

جلس قبالتها باسمًا ، ففكرت كيف أن ابتسامة بعض الأشخاص تبدو للبعض الآخر أجمل من شروق الشمس ولها تأثير القمر ، كيف لابتسامة أن تحدث فيها كل هذا المد والجزر من الأحاسيس.

لم تكن ابتسامته سعيدة بوجود عصفور غبي بين يديه يقبل أن يتجرد من ريشه كوجبة لقط جائع، كانت ابتسامته كمن يخفي سكينًا حادة لذبح هذا العصفور.

_ سأسافر غدًا إب.. اشتقت للأولاد وأمهم ، اشتقت إلى مدينتي كلها.

هل هكذا يفعل الانشطار في القلوب لو انشطرت نواة القلب !!؟

تحشرجت بكلمات هي كل ما استطاعت قدراتها اللفظية والمعنوية على إخراجه إلى حيز السمع، لكن مع حروفها تبخرت أنفاسها الذي حبستها الصدمة فصار جوفها خاويًا ، تزأر فيه رياح عدم التصديق:

_تسافر ؟ ومتى تعود ؟

_لا أدري في الحقيقة.. ربما أتأخر ، لهذا أحببت أن نقضي بعض الوقت معًا كوداع لأجمل أيام مرت فقد لا نلتقي عن قريب.

سيغيب عن نظرها..

"سيغيب عن متناول الحلم..

هيا أيها القلب الغبي تأمل وجهه الحبيب ربما لآخر مرة..

هيا أيتها الحواس تمتعي بالوجود والإحساس أيضًا ربما لآخر مرة ، سيقفل كل باب يؤدي إليك..

تمتعي بعينيه و نغمة صوته ، تنشقي رائحته واحتفظي بها حتى آخر العمر ، قومي بوداعه كما كنت تتمنين لقاءه الذي ربما لن يأتي..

فليكن الوداع الذي جلب قسوته جميلًا يليق بهذا الحب الذي لن تعرفيه مرة أخرى ".

هذا اللقاء ليس لقاءً بين عاشقين، إنه لقاء بين عاشقة ورجل رغب في إنهاء علاقة كانت تافهة، صمته المطبق أمام لهفة حبها لم تيقظ هواجسها،إنه يتحدث كمن لا علاقة له بما يحدث في أعماقها..

فهو لم يعدها بشيء..

نعم. لم يعدها بل حذرها ، لكنه ترك كل الأبواب مفتوحة كي تتسلل إلى حبه ، تركها تغوص أكثر في رمال تعلقها به، تدمن عشقها له، لماذا كان يتجمل بصفات عشقتها فيه ؟

هي.. من قتلت قلبها حبًا ووهمًا..

وهي من يجب أن تنسحب بكبرياء مشروخة جلبتها معها إلى شقة رجل يقول لها: لا أريدك.. وانتهى وقتك معي.

لكنها ليست نادمة أبدًا.. لقد أحبته كما لم تعرف الحب ، وعاشت تفاصيل ربما تكون مشانق راحتها مستقبلًا ، لكنها لا تبالي فقد كان اختيار القلب.

كان ينبغي عليها أن تدرك أن لا فائدة من حب من طرف واحد ، قال لها ذلك في لقائهما الأول ، لكنها كابرت..

فكرت أنه سيستسلم أمام جيوش عواطفها واهتمامها، فكرت أنها ستقتحم قلعة قلبه وتنتصر على تردده نحوها، أنها ستصبح ملكة على عرش حبه وتحتل كيانه.

لكنه الوهم.. لم يكن سوى الوهم. همس مكتئبًا:

_ عفاف.. ستجدين يومًا الشاب الذي يستحقك صدقيني.

نعم..من السهل على شخص لا يعرف مدى الخراب الذي في داخلك أن يتنبأ لك بمستقبل جميل وواعد، ما دامت أعماقه تحتفل بالخلاص الهادئ

من جنون عشقك وتعلقك ، من السهل أن يبتسم في وجهك مطمئنًا أنك لن تموت خلفه وإن بقيت على قيد الموت.

لكنها ستبقى على قيد الحب فقط ، وستنتظر عودته يومًا، فهو اختيار القلب.

حين ألقت بنفسها بين ذراعيه وهي تضمه بشوق كانت على يقين أنه رجلها الوحيد وإلى الأبد..تهتف حواسها بوجع:

_حرام يا حازم حرام..تحرمني منك..

لماذا لا تموت الآن على صدره مادام الموت سيأتي فراقًا وبعدًا ؟

ما أقسي أن تتفرق بك السبل عن شخص مازجت أنفاسه ذرات روحك بشغف لم يستوعبه أو يقدر قيمته بل رآك محطة عابرة في حياته فقط.

هي لن تندم..

إذا كان هناك من يستحقها ، فهو اختيار قلبها.

******

جسدها الذي ينتفض ألمًا وخوفًا تبرأ من طيشها، فدفعته عنها بعيدًا وهي تبكي عمرها مقدمًا.

نهض حازم وهو يرتجف انفعالًا:

ـ أرجوك أن تغفري لي؛ أنا رجل ، مجرد رجل طبيعي في مشاعري نحوك، لم أقصد إيذاءك يا عفاف أقسم أني لم أكن أنوي أو أريد.

كان يتناول جاكيته الذي سقط عن كتفيه أرضًا:

ـ أرجوك هيا كي أعيدك إلى منزلك ، إن رأسك يشتعل بأفكار خاطئة عني وهذا ما لا أريده.

لا تدري كيف أصرت على الذهاب وحدها، ولا كيف تركها تذهب هكذا أشلاء مبعثرة ؟

كيف خرجت تسحب كرامتها خلفها جثة ثقيلة تستحق الدفن فقد لفظت أنفاسها بين ذراعيه عشقًا ممنوعًا.

كيف نقشت في جدران ذاكرتها نظرته الحزينة المتلهفة حتى تشربت شقوق تلك الذاكرة المثقلة، بل كيف تركته إلى ما لا نهاية بلا أمل في لقاء؟

كيف لن تراه مجددًا..هي لا تصدق !!

لكنها وصلت أخيرًا منزل سوسن.

وهناك سفحت كل الدموع المتبقية إلى آخر العمر كما اعتقدت سوسن، بكت كل الليالي القاتمة في الطريق وكل خيبات العمر السابقة واللاحقة، بكت روحها وجسدها وحبها الضائع، ومن بين الدموع أخبرت سوسن بحديثه و سفره وكل ما حدث.

ـ إنه لم يحبك.. أبدًا لم يدخل حبك قلبه. لقد كان يتسلى في فترة بقائه هنا في صنعاء، يتسلى حتى يعود إلى أسرته وينساك كأنك لا شيء.لم تحركه

تضحيتك أبدًا ، أنت الآن لم تقتلي نفسك فقط ، لقد قتلت إخوتك وكل عائلتك.. استبحتي نفسك وكرامتك وكرامة عائلتك من أجل رجل لم يثمن ذلك، بل سيعتبره نقصًا في أخلاقك وتربيتك ليس إلا ، كل الرجال يا صديقتي لا يحترمون المرأة التي تهب نفسها باسم الحب، بل يرونها في النهاية امرأة رخيصة.

كم تجيد سوسن شي بقيتها ، إن تبقى شيء !!

لكن كلماتها النارية حقائق وهي تكتوي بها بلا شفاء رغم أن الكي آخر الدواء.

لقد أضاعت في سبيل هذا الحب المستحيل أشياءً لا تعوض، كرامتها وسلامها الروحي وثقة "خطاب " فيها وكل القوانين التي تربت عليها،وقلبها..

_ سأتصل إلى منزلكم وأستأذن أن تبيتي عندي فحالتك لا تسمح بالعودة أو رؤيتك من أحد وأنت على هذه الحالة، ستكون ليلة مليئة بالنواح والكوابيس.

كان هذا أفضل ما ستقدمه سوسن لها لبقية العمر ، هي لا تطيق كبت البكاء ، وإن حاولت ستنفجر وجعًا.

ويحدث أني في فسحة الهروب أفكر فيك كثيرًا..
وأرسل لنفسي منك وفدًا من الأمنيات..

وصك غفران وباقة ورد..
واعتذار.. وكلمة حب..

فكرية..

في صباح اليوم التالي هاتفت مقر عملها واعتذرت متعللة بتوعك أصابها ، فصاحت زميلتها هيام في الطرف الآخر:

_اليوم مميز يا عفاف، سيكون هناك حفل وداعٍ للأستاذ حازم فقد انتهت فترة عمله بانتهاء المشروع الذي نفذه، حاولي أن تحضري ولو لقليل من الوقت.

لن تذهب للاحتفال بحدوث الدمار لها..

تمنت للجميع حفلاً جميلًا على أشلاء قلبها المحطم، أما هي فستعود لتبكي قدرها بصمت.

استقبلتها أمها بلهفة وهي تقول:

_ما بك ؟ هل مرضت ؟، أعرف أن منزل سوسن بارد جدًا لقد أصابك البرد يا بنيتي.

"أجمل ما في أمها أنها تسأل وتجيب على نفسها فتوفر عليها عناء البحث عن إجابة. همست بتعب:

_نعم يا أمي أصبت بصدمة برد وسهرنا حتى الفجر في كلام وضحك، لقد اعتذرت عن الذهاب إلى العمل، كي أنام أنا مرهقة جدًا..

لحسن الحظ أن "خطاب" في العمل وزوجته خرجت كي تقوم بجولتها الصباحية وعمر في المدرسة،لم يكن هناك سوى رنا الصغيرة تلعب بجوار جدتها، أما جمال وزوجته فربما مازالا نائمين.

لن يسألها أحد لماذا عيونها منتفخة ومتورمة ولماذا تبدو كشخص خرج من القبر أو يعزم على الدخول إليه قريبًا..

أمها ستظل طوال اليوم تشكو مرضها للجميع فتوفر عليها عناء الحديث أو التبرير.

يكفيها مشقة أسئلة قلبها المحيرة..

"لماذا لم يحبها ؟ لماذا لم تستطع أن تحرك فيه شعورًا أقوى من الشفقة ؟

كل هذا الحب.. كل تلك الرسائل التي كتبتها له، كل عطاء المشاعر والانصياع والاستسلام لم يعنِ له شيء ؟

ربما رأى حبها له تعلقًا مرضيًّا في مواجهة النفور من كل ما هو رجل.

ربما فقط كان يتسلى كما تقول سوسن؛ وأنه لا يختلف عن أي رجل بل هو أسوأهم .. ربما هي نزوة تافهة بالنسبة له ويجب أن تنتهي.

ربما رآها فتاة سهلة كي ترتمي بين ذراعيه فكانت عابرة.

******

كأنما النسيان يباع في متاجر فخمة، يعجز باذخ العشق عن شرائه ويناله شحيح الحب هبة وأعطية..

لو تملك النساء قلوبًا كقلوب الرجال بعد الفراق !!

ربما لن نجد ألمًا نصفه بهذه القوة كما يحدث الآن لقلبها، ربما كان النسيان أقرب لهن مثلما هو لهم، ربما حينها لن تُعرف النساء ببوابات الانتظار المغلقة أمام الحياة.

لقد انتظرت منه هاتفًا كي يطمئن.. أو يعتذر..أو يعود.

لكن الأيام كانت أثقل من أن تسحب معها شيئًا مفرحًا في القدوم، بل مرت كئيبة مثخنة بالانتظار واليأس.

صباحاتها أسئلة معلقة حتى يأتي المساء، والمساءات اجترار للذكريات.

كل شيء حولها يحمل من "حازم" ذكرى، حتى الهواء يخادعها حين يحمل نبرة صوته من مخيلتها، أو رائحة جسده قد اختلطت بعطره وأنفاسه فكان كوكتيل شوق موجعًا لذكرى يومٍ حار جمعهما ذات نهار.

_ هل سيعود يا سوسن ؟

_ لا.. لن يعود ، الرجال لا يلتفتون إلى الوراء كي يطمئنوا على ألعاب المراهقة المحطمة، إنهم أطفال كبار يفقدون الاهتمام بألعابهم التي كسروها حال تركها، إنني لا ألوم تلك القلوب التي احتلها النسيان؛ فإحساسها بالآخرين عابر كي يهتموا بما يحدث لهم .المشاعر العابرة مثل الوجوه العابرة في حياتنا؛ لا تعلق في الذاكرة سوى لحظة مرورها فقط ثم تنسى..

_آه يا سوسن أريدك حين يرتفع منسوب الحنين والشوق عندي أن تذكريني كم هو حقير هذا الرجل!!.

الخيانة لا تحدث إلا من الداخل، أما ما يأتي من الخارج فهو هجوم يمكن أن ندفعه، أو احتلال فتقاومه، الخيانة كانت من حواسها حين تشتاق إليه فتنصب الكمائن لذاكرتها في كل شيء حولها، في صدى ضحكة اختبأت في ركن ما في عقلها؛ أو رائحة علقت في أوردة القلب فأسكرته، في كلمة لم تعنِ له شيئًا ونسجت من حروفها دثارًا لبرد البعد والانتظار.

لقد كانت تنتظر دون أن تخبر نفسها..تنتظر خلسة من كرامتها المذبوحة..

كل يوم تتفقد ملامحها هل مازالت مشرقة حتى يلقاها كما رآها عندما يعود ؟ وهذا الجسد الذي سيزحف العمر عليه هل يبقى نضرًا حتى تلتقي به حين يعود ؟

******

"أنت امرأة قوية يا عفاف "

قالها يومًا وهما في العمل حين رآها تثابر كي تثبت وجهة نظرها.. كأنه يعدها بعذاب لن تحتمله سوى قوة امرأة مثلها ،" أنت قوية " سمعتها كثيرًا ممن حولها وبجوارها كلمات أخرى تضعف هذه القوة وتسحقها " "أنت ساذجة".."لن تعرفي الدنيا ولو كبرت ".. "أنت إنسانة أكثر من مما يتطلب الواقع "..

قوتها كانت في استيعابها لمفردات الألم ، في تحملها لكل وضع تفرضه الحياة عليها غصبًا ، قوتها في صبرها ومثابرتها كي تصل إلى ما تتمنى، إنما ليس كل ما تمنت يمكن أن يحدث.

لقد تمنت أن تثير فيه شعورًا أفضل من الدهشة والشفقة ، شعورًا تستحقه في مقابل حبها له، لكن قدرها ألا يصل مدى إحساسه بها أبعد من الدهشة لكل ذلك الحب الجارف ، والشفقة لما ينالها جراء هذا الألم.

كم تمنت أن يقابل ذلك الحب ببعض الاهتمام والاحترام، أن يتخذها قربه أي شيء؛ صديقة أو أختًا يسأل عنها بدلًا من أن ينفض كفيه منها كلاشيء حين قرر العودة إلى حياته.

هل كان في قلبه قلب أم صخرة جامدة !!.

لكن بعض الصخور يمكن لقطرة الماء أن تفتتها.. والبعض يمكن قذفها في البحر والتمتع بدوائر حيرتها قبل أن تغرق، لكنها من كانت تغرق كل يوم وليس صخرة قلبه الصماء.

ليت كان لنا حرية اختيار أحلامنا وأمانينا وتحقيقها منوط بنا فقط ، كنا اخترنا أمورًا لا تزيد في شعورنا باليأس أو الإحباط..

إن قوتها هذه هي من ستجعلها تقاوم اليأس والانهيار، و تدفعها إلى تحقيق جانب في روحها ينسيها وجع الجانب الآخر، ستكون عونًا لغيرها ما دامت قد عجزت عن مساعدة نفسها.

لقد كانت لها أحلامًا سامقة قبل أن يجتاحها إعصاره ، كانت لها خططًا مستقبلية وطموحات مستحيلة.

وقد آن الأوان أن تقاوم السقوط بالتشبث بها، هذه الأحلام هي من سترفعها من هوة الفقد والشوق والألم.

هي تحتاج إلى فترة تلملم أشلاء روحها المتناثرة، ثم تواصل المضي في حياة بلا طعم ولا رائحة، ستحاول خلق منكهات للبقاء، فقد اعتادت الكفاح.

اعتادت الصبر وتربت عليه، تظل متحفزة لاقتناص أمل فيما تتمناه، مجرد أمل وستصل إلى ما تريد.

طوال أسبوع كامل غابت فيه عن العمل، بحجة المرض الذي أضعفها وأنهك قوتها.

خلال تلك الأيام تجلس قرب والدتها تسمع حكايات أمها عن والداها الراحل ، حين خطبها وتزوجها وكيف عرفته ليلة الزفاف لأول مرة و كيف أحبته ولم تر بين الرجال من يماثله أبدًا، تحكي عن بساطة الحياة والعلاقات دون تعقيد هذه الأيام وأزماتها العاطفية.

كانت الحاجة "خديج " تشارك أمها في جلسات الصباح وتبادل حكايات الزمن الجميل.

منذ كانت طفلة وهي تستمع إلى حكايات الحاجة "خديج" بغبطة.

فقد كانت رفيقة صباحات والدتها، عاشت كل واحدة منهما عمرًا وانتهت أوجاعه وأفراحه ، لم يعد هناك سوى الذكريات تتحدثان عنها بلا مرارة أو ألم، وإنما بقناعة من لا أمل له في تغييرها أو عودتها.

الحاجة "خديج " امرأة صغيرة الحجم بعينين خضراوين، لها جمال غابر ومؤثر؛ تردد قصة حبها لزوجها الثاني دون ملل، لقد أحبته كما تحب النساء القويات فعلًا، وأنساها حبه زوجيها الآخرين، الأول الذي تزوجها طفلة، وانتهى زواجها بالطلاق منه بعد ثلاثة أعوام من الألم والهروب والرفض، و زوجها الثالث والد أبنائها الثلاثة والذي تزوجته رجلاً كبير السن تركها بعد ذلك مع ثلاثة من الأيتام تربيهم وحيدة دون سند في بيئة قروية شاقة.

كان زوجها الثاني يحظى بأغلب حديثها اليومي بشغف لم تطفئه السنوات وتقدم العمر أو حتى نصيبها الكبير من ألم زواجها به والذي لم يستمر سوى بضعة أعوام.

لقد تزوجها بعد طلاقها بخمس سنوات من زوجها الأول، وقد أصبحت شابة قوية وجميلة، كان يصغرها بأعوام،لا يزال يافعًا أقرب إلى سن الصبى منه إلى عمر الرجال، شابًا طويل القامة مفتول العضلات، لا يشبهه الرجال في هيئته كما تصفه دائمًا.

خطبها والده كي تساعدهم في زراعة الأرض والفلاحة، فمن المعتاد في تلك الفترة حدوث شيء أقرب إلى شراء أيدي عاملة بواسطة الزواج، بل

هي أسهل الطرق في الأرياف اليمنية ، فالفتاة القوية النشيطة متعددة الفوائد زوجة وعاملة في الأرض وأم تنجب الأطفال.

لقد أحبت الحاج "ناجي " كما تخاطبه في غيابه، وانتظرت أن يكبر ويصبح رجلاً يدرك مدى حاجتها إليه:

قالت والدموع تطفر من عينيها ككل يوم:

_والدة الحاج "ناجي كانت تخاف عليه مني يا أم خطاب، فتمنعه من النوم في حجرتي أغلب أيام الأسبوع، كنت أتمنى بعد يوم شاق من العمل أن أجد صدرًا أضع عليه رأسي يغدق علي الحب والحنان، لكن والدته لا رحمها الله كانت تقول بقلة حياء:

_ الولد مازال صغيرًا على النوم معك يا أرملة.

لقد كنت أحبه وأرعاه أكثر من أمه تلك؛لا أدري لماذا زوجوه مني ؟هل فقط كي أعمل في الأرض بلقمتي ؟

لقد كان امتهان مشاعر المرأة من امرأة أقسى وأوجع..

_ وماذا بعد يا خالة "خديج "؟ كانت تسألها بلهفة.

_ كبر الحاج "ناجي "يا ابنتي وأصبح رجلاً يخطف أنفاس النساء، وكافأني على صبري وتزوج فتاة جميلة وقوية كالثور، كانت طويلة القامة مثله ولا تكف عن السخرية من قامتي.

لم أتحمل معاناتي مع والدته ومن بعدها زوجته المتوحشة التي كانت تأتي لتنتزعه من فراشي إذا جاء وقت ليلتي انتزاعًا. أخذت نفسي وعدت مطلقة

من جديد، حتى جاء أبو الأولاد فقبلت به على كبر سنه من أجل الستر يا بنيتي فالمرأة تحتاج إلى ظل رجل أي رجل !!.

مازال خيال الحاج ناجي يتراءى لي في نومي وصحوي ولآخر عمري، ذلك الرجل الذي أحبه قلبي؛ كنت أتمنى بعد أن غادرت قريتهم لو أكحل عيني برؤيته مرة أخرى، ولقد رأيته بعد خمس وعشرين سنة، رأيته وعرفته ولم يرني، لقد ساقه القدر ليقف أمام سيارة ابني في سوق مزدحم، لقد تغير ولم يعد ذلك الشاب الذي سرق قلبي، لقد أصبح وجهه مسرحًا للزمن.

نحن النساء إذا أحببنا لا ننسى أبدًا لأننا نحب بصدق، ليس من السهل أن تنسى رجلاً أحببته ولو عرفت كل رجال الأرض، الرجال فقط هم من ينسون المرأة التي أحبوها مع أول امرأة غيرها.

"ستكون هي "خديج" أخرى..

لن يغيب حازم عن خيالها ما عاشت؛ إلا أنها لن تبيع نفسها لآخر من أجل الستر أبدًا..

******

ويحدث أني أجدني قلب محتقن بالدموع..

فأبحث عن قصة حزينة هنا أو هناك..أو شكة دبوس تأذن لي بالبكاء..

شهور الانتظار الثقيلة لم تقعدها أسيرة الألم..

فنحن يجب أن نعيش هذه الحياة رغم آلامنا وتوالي الإحباطات والخسارات، فكما أنا جئنا إليها دون مشورة أو رأي منا فيجب أن نواصل الحياة رغمًا عنا أيضًا، كوننا ضمن سلسلة مترابطة تعتمد أجزاؤها على بقائنا أقوياء لا نتعثر مع أول صدمة فيخسرنا من هم بحاجة إلينا.

لقد عادت بنشاط ملفت إلى العمل أثار تندر زملائها، وبدأت بإعداد مشروعها الخاص الذي تطمع أن ترعاه وتدعمه المؤسسة وأن تجد له المساندين والمشجعين، مشروعها الذي يحتاج إلى مال وفير ودعم لا محدود ومساندة كبرى، و لن يكون ذلك إلا بقدرتها على سد ثغرات وعيوب المشروع بدراسة عميقة ومكثفة.

عندما تفقد الأمل في حلم أصنع آخر؛ كي تبقي ذهنك بعيدًا عن الحسرة على ما فقدت، وربما هذا ما تجيده لكثرة ما تلاشت أحلامها وصنعت أحلام بديلة كي تعيش على أمل تحقيق حلم.

كان مشروعها حلمًا راودها منذ الصغر ولولا هذه الطاقة السلبية التي تتنامى في أعماقها وتتمنى تذويبها في عمل إيجابي لتملكها اليأس من صنعه وحدها.

كان عبارة دار متكاملة تضم فتيات ونساء أعاقهن القدر على التمتع بكامل قواهن الطبيعية وبقين حبيسات البيوت ينتظرن من العائلة الاهتمام والإنفاق.

لن يكون الأول من نوعه لكنه سيكون الأفضل بمثابرتها، إنه حلمها الصغير لإثبات حق كل أنثى لا حق لها في مجتمع يؤمن بحق القوي فقط..

تمنت لو ترى كل واحدة منهن الجانب المشرق من الحياة، فالله لم يخلقنا هكذا بلا قدرات أو ميزات وكل ما نحتاجه أن نكتشف أنفسنا فقط.

يتنامى في أعماقها الرفض لكل شيء يسبب القهر للمرأة، ترى أن الاستسلام الأعمى لأقدارنا هو القدر الذي يقتلنا.

لم يخلقنا الله حقل تجارب لمرسوم قدري صادر منه تعالى، بل خلقنا في حرب دائمة بين قدرين لخسارة وربح.

نحن على موعد مع قدر لا حيلة لنا فيه نتخبط بين اختيار الله واختيار القلب.

أخذ منها الإعداد لمشروعها كل ساعات النهار لشهور طويلة، وأخذ معه نصيبها من ميراث أبيها بعد صراع طويل في إقناع إخوتها، لقد كان من الصعب أن تأخذ فتاة ميراثها هكذا وتتصرف به بحرية.

كثيرات من فتيات الأسر تنسى فكرة المطالبة بحقها في الميراث بحضور عدد من الإخوة يتملّكون كل شيء بعد رحيل الوالد، وكثيرون هم الإخوة الذين يتجاهلون حق الأنثى في الميراث ما داموا يطعمونها ويكسونها.

لكن عفاف بمساندة والدتها أقنعت إخوتها أن يقسم الميراث وأن يعطى كل واحد حقه بما شرع الله، و حينها باعت ما تم إيقافه كميراث لها بمساندة خطاب كالعادة وبدأت في تمويل مشروعها.

أيام وشهور عانت فيها تلك المعاناة الأزلية التي تواجه امرأة في مجتمع منغلق ينظر بعين الشك والريبة إلى كل شيء، كان أكثر ما كابدته هو إقناع ذوي الفتيات بتركهن يجربن فرصة في الحياة غير البقاء في البيوت و انتظار الموت، وكلما واجهتها صعوبة تحفزت أكثر، تبحث عن الانشغال كالظمآن للماء.

كان عليها القيام بأكثر من عمل في نفس الوقت حتى تلاشى الوقت من بين يديها و لم تعد تحصى أيامها ولياليها منذ غادرها ذلك الرجل.

استنفرت كل طاقاتها العاطفية والبدنية أمام جيوش الفقد والذكريات طوال النهار.

وكان المساء حليف الذكريات..

ربما خانتها أصابعها وهاتفته مرة أو مرتين؛تتمنى أن يفتح هذا الحد الفاصل بين الاحتراق و السعادة فلا يفتح أو يرد.

ثم أصبح رقمه مغلقًا في وجهها وأصبحت خارج نطاق تذكره؛ ربما طوى صفحة من الأيام هي عالقة فيها رغم المقاومة !!

تشتاقه كثيرًا !!

تحلم برؤيته حتى بمنام، تتمنى سماع صوته أو صوت يشبه صوته..

كم تمنت لو ضمتهما مدينة واحدة لربما صادفته في زاوية ما فتهنأ برؤيته من بعيد، ربما تراه في متجر لبيع الخضار يتبضع حاجيات عائلته، أو ربما في مكتبة يشتري صحيفة أو كتاب، ما أكثر المصادفات التي يلتقي فيها الأشخاص ذوي الاهتمام الواحد في مدينة واحدة؛ لكنه البعد الذي لا يتسع لحلم.

"أنا رجل.. ورجل جدًا "

لقد قالها كمن يتبرأ من تهمة الحب ويعترف بفطرة الاشتهاء فهو في كل الأحوال رجل حين تتعلق به أنثى بكل ذلك الشغف المجنون، كيف لا يلتهمها بكل تلك الرغبة ؟.

(لقد فعلت من أجلك ما لم أتخيله في حياتي، لقد نسيت كل القوانين التي تربيت عليها فقط كي أكون قربك للحظات.

فهل تؤرقك الذكريات كما تفعل بي ؟

أم أنك رجل ذكرياته مزدحمة ومتراكمة وتحتاج إلى مجرفة الشعور بالذنب كي يقلّبها ويتذكر كم أحببته وكم آلمني.

ترى هل تعرف إبر الشوق ومخارز الفقد، هل تركت في قلبك يومًا وشومًا من الحزن والذهول عن كل شيء..

أتساءل؟..

هل سأنسى وقع يديه وشفتيه على جسدي ووجهي ؟، كيف فكت تلك الأنامل الخبيرة رموزه المختومة بعذرية القلب ؟، وعاشت فيه لدقائق وأغلقته بعدها بشفرة سرية للأبد ".

كيف لم تعنِ له تلك الدقائق سوى وجبة سريعة ومذاق مختلف ؟ ثم لفظ بقاياها كما ترمى إلى سلة النفايات البقايا.

تتذكر أنه عبث بجسدها فلا تتألم..

إنما يوجعها أنه اغتصب قلبها أولاً وبقوة كاسحة، فقدمت له جسدها إعلان ملكية ، وميثاق حب ، وحق عشق.

فكان أن امتص رحيقها بشراهة الذئاب إلى النساء ورماها كزهرة ذابلة؛ رماها كانت كلمة لطيفة ، لقد لفظها!!.

لقد أنهى حياتها كفتاة و أمهر فعلته بتوقيع دمغها إلى الأبد في نظر نفسها كفتاة مبتذلة، قدمت نفسها إليه طواعية دون طلب منه، بل إنها رمت نفسها بين ذراعيه كشيء رخيص.

الآن هي في نظر الجميع والعمر الذي يمر عانس مجنونة؛ ربما لا يذكرها هو إلا كمغامرة تافهة.. نعم كانت تفاهة في نظره.

لكنها حولت مسار حياتها إلى أخطر منحنيات عقل الإنسان.

لقد بدأت تناصب القدر العداء، وتناقش الله في أقداره ولماذا اختارها هي ؟

لقد شعرت بالضغينة نحو إله حرمها منه وأذلها بحبه.

لقد كان قدرها أن تقوم بدور الغبية في مسلسل الحياة، وأن تحوز على شفقة البطل والمشاهدين وقرفهم أيضًا.

تحتج على كل شيء وتتمرد على كل شيء وترفض لمجرد الرفض، تشكك بكل ثوابتها القديمة؛ وتنتزع أحلامها كانتصار في حرب قدرية.

تتمنى أن تتخلص من مذاق الوجع بالبوح إلى الورق، فكانت تخاطب وجعها في شخصه في كل مرة.

دأبت أناملها كل ليلة قبل النوم أن تفضي إلى شبح أخطائها عن كل ما يجرى في غيابه؛ ربما كي يلازمها طوال العمر يتسمع حكاياتها المخضبة بالدموع، هي الصامتة عن البوح حتى للريح.

(لن يغفر الله لك أبدًا يا حازم، لن يغفر الله لك ما فعلته بي وكيف دمرت ثقتي بكل شيء حولي ؟ كيف نزعت إيماني من صدري حتى صرت أكره نفسي وأكره قدري بسببك.

أنا لا أكرهك فقد قمت بدورك في الحياة كرجل، أنا أكره نفسي التي قامت بدور المرأة الغبية، وهذا ليس مقامي الذي أتمنى في الحياة، لكنني أعود لأجد لنفسي عذر الحب ومرآة الحب عمياء ومشروخة أيضًا..

تظهر صورتي أمام نفسي مشوهة ومقسومة إلى نصفين أحدهما أنا والآخر دوري الغبي.فهل تظن أنك وطئت بأقدامك سطح القمر ؟ ! أقدامك لم تطئ سوى كوكب قلبي وسحقت زهور الحب فيه).

تحسست ملامحها بأطراف أناملها.. و همست:

"أتعرف؟ أنا لن أشيخ.. لن أترك روحي تعجز عن الحلم.

لن تشيخ روحي الفتية أبدًا مهما عبث الزمن بهذا الجسد فلقد عاش لحظته الأولى والأخيرة بين يديك وانتهى أمره بعد أن أضعت شفرته،بعد أن فقدت الإحساس والرغبة في إرضائه، كانت ولا تزال روحي عنيدة تأبى الاستسلام ، تصارع النكبات والنكسات وتخلق منها وقودًا وطاقة لمحو اليأس.

حقًا.. إن الحزن سيظل رفيق هذه الروح لكنه لن يعجزني أبدًا ، سأكون أنا كما أشتهي وتشتهيني الحياة التي أرفضها.

سأنتقي من ضعفي إليك وحاجتي لوجودك قوة أكبر تولد عنادًا أشد كي لا أسقط.

سأبكيك كل مساء وألعنك كل صباح.. وليحبك قلبي كيف شاء.

******

هناك بشر لم يخلقوا كي يعيشوا حياتهم..

بل خلقوا للآخرين.. لذا يولدون مرتين: مرة كالآخرين..

ومرة حين يرحلون..

فكرية.

لقد كان جلّ منتسبي الدار من بنات الفقراء والعائلات البسيطة التي لا تولي أدنى اهتمام لفتاة ولدت أو أصيبت بعاهة تقعدها عن التعليم العادي أو يكون بمقدورها علاج ومتابعة حالتها لربما يجد الطب لها علاجًا.

لكن قسم المريضات نفسيًا وعقليًا كان هو ما يستحوذ على اهتمام عفاف.

فمنذ صغرها و قصص النساء الآتي أصابهن الجنون تثير فيها الحزن والألم ، تذكر وهي طفلة حين تناقلت الجارات الآتي يزرن أمها قصة الفتاة التي جنت فجأة أثر صدمة عصبية أودت بعقلها؛ تذكر حين تسربت الحكايات أن والدها المخمور أعطاها السم في الطعام كي لا تفضح الأسرة بمحاولتها الخروج كلما أتتها نوبة ضيق تجعلها تصرخ طلبًا للهواء.

كانت قد هربت ذات مساء بملابس البيت حاسرة الرأس ولم تبتعد أمتارًا عن المنزل حتى أدركها والدها وأخوها وأشبعاها ضربًا لم تفارق جسدها علاماته حتى ماتت مسمومة، يومها دخلت عفاف مع أمها التي لم تكن لتسمح لها بالدخول إلى بيت الجيران لولا أنها حالة موت، وأرادت والدة عفاف أن تفهم ابنتها طويلة اللسان ماذا يحدث للفتيات المجنونات اللاتي يكسرن ظهور الأهل بهروبهن وجنونهن.

لم يفارق خيال عفاف وجه الشابة الأزرق ولا علامات الضرب على ساعديها وظهرها والنساء تجهزنها للدفن بجنونها وظلم القدر لها.

تتذكر كثيرًا حليمة المجنونة، المرأة الوحيدة التي كانت تجوب أحياء المدينة بشعرها القصير الأبيض المتسخ جدًا وثوبها المخصّر بتكسيراته الكثيرة حول خصرها والذي لم يعد يعرف لونه فعلًا، تذكر أنها كانت ترتدي أكثر من سروال ممزق يظهر من تحت ثوبها القصير ، تمشي حافية القدمين قد صنعت من أوساخ الشوارع حذاءً سميكًا لا ترى قدميها فيه، كانت المجنونة الوحيدة التي لم يكن لها أهل يربطونها بالحبال في حجرة قذرة أشبه بالزريبة، بل تركت تجوب الشوارع وتأكل مما يتحسن الناس عليها، وكانت المجنونة الوحيدة التي لاقت أصناف الضرب من الصغار الأشقياء وربما الرجال الأغبياء كونها مجنونة ولا تميز بين من يعطيها ومن يأخذ منها.

لفترة طويلة كانت عفاف تراها بشكل متقطع وهي في طريقها من وإلى المدرسة. وتخاف الاقتراب منها كثيرًا فقد سمعت البنات يتحدثن أنها أمسكت بنتًا صغيرة و ظلت تضمها إلى صدرها بقوة طوال النهار وكلما حاول أولاد الحي تخليصها كانت حليمة المجنونة تصرخ فيهم " اتركوا لي ابنتي..اتركوها لي ".

لقد كادت الطفلة المسكينة أن تخنق ضمًا وتقبيلًا إن لم تكن قد اختنقت من رائحة جسد حليمة وثيابها، حتى أنقذها رجلان قاما بضرب حليمة المجنونة بقسوة حتى أفلتت البنت الصغيرة.

أصبحت عفاف بعد تلك الحادثة تحزن عليها عن بعد، خوفًا من عناقها الشهير.

تحزن لكل أنثى فقدت عقلها ضعفًا وقدرًا أمام صدمة باغتتها بها الحياة فلم تحتمل.

في طفولتها كانت تتساءل لماذا قد يفقد الإنسان عقله ؟

فعندما يفقده قدرًا يعمل كل من حوله على إفقاده إنسانيته، ينزل من خانة إنسان في نظرهم إلى منزلة حيوان ناطق بالهذيان فقط..

كأنه لا يتألم فيعامل بقسوة عجيبة؛ وتنتزع بقية حقوقه من الرعاية والرحمة تلقائيًّا بفقدان عقله.

حين كبرت قليلاً تمنت أن تجمع كل مجانين الشوارع في دار تهتم بإطعامهم ونظافتهم وعلاجهم، كانت أحلامًا مثالية في عالم مجنون بشتى أنواع الجنون المختلفة والخفية.

لكن حين أصبحت عفاف الموجوعة لم تر سوى أوجاع النساء التي يسببها الرجل محصنًا بقوانين مجتمع قبلي يقف إلى جواره كرجل مسيطر على شطر هذا المجتمع بكونه ذكرًا فقط.

اجتهدت كثيرًا كمن يلتقط الشوك من رداء جميل وهي تزور منازل لنساء فقدن عقولهن وأخفاهن ذويهن بعيدًا عن الأنظار، لم تكن المصحة المهيئة للأمراض النفسية متوفرة في كل مدن اليمن والمصحات الموجودة في صنعاء مزدحمة بالحالات والإهمال الجسيم في تنافس كبير.

لذا وجدت من يلقي حمولته بسعادة بعد أن أطمئن أن (مكلفه) ستكون بأمان وحفظ من الفضائح.

هكذا هو مجتمعنا القبلي يقدم الأعراف والمظاهر حتى على الإنسان.

******

"محمود" كان أول من تقدم للعمل في مشروع دار العفاف.

كان العمل يتطلب حلقة وصل بين شريحة الناطقين بضجيج غير مفهوم والصامتين في بلاغة موجعة، لم تكن هي لتفهم أكثر من لغة العيون، ولم تعد تثق بها منذ زمن.

كان تجهيز مبنى الدار قد أنساها الحجرة التي يجب أن تكون ركنه المهم مكتبها حيث تستقبل زوار وملتحقي الدار، لذا فقد بحث عنها محمود في أقسام المبنى حتى وجدها في الحديقة الخلفية له، كانت تقف هناك باعتزاز وهي ترى النباتات التي حرصت على غرسها تنمو وتكابر مثلها، لقد بدأ حلمها يخضر وتظهر ملامحه الواعدة.

رأته مقبلًا نحوها بخطوات واثقة، تسبقه ابتسامة عذبة كأنها بيان حضور مميز ، حين وقف قبالتها انتظرت صوتًا قويًا يشبه تلك النظرات الثابتة، لكنه مد لها بورقة كتب عليها بأحرف أنيقة:

(محمود سلام.. معلم ومترجم لغة إشارة..)

رفعت عينيها نحوه وقد بدا عليها الارتباك " هل يعني هذا أن معلم الصم والبكم يكون أبكمًا ؟ وكيف ستعلمه أنه لا ينفع للعمل وهو غير قادر على إيصال المعلومة لها، هي من تحتاج إلى مترجم بينها وبين فتيات الدار من شريحة البكم ".

أخرستها المفاجأة وخشيت هز ثقته الواضحة في نفسه، لا يمكنها أن تؤذي مشاعره بعبارة:أنت لا تصلح لهذا العمل.

وبصعوبة بالغة وهي تتلعثم كمتقدمة لعمل أمام رب هذا العمل قالت غير واثقة إنه يمكنه السماع أيضًا ، فقد يكون أصمًا:

_ أستاذ محمود.. لا أدري ما أقول لك ؟ لكننا بحاجة إلى مترجم يكون حلقة وصل بيننا وبين الفتيات وأنت كما يبدو غير قادر على إفادتنا.

كانت غارقة في الحرج والأسى عليه لكنه مد لها بورقة أخرى بثقة زائدة:

(سيدتي.. أنا حاصل على أعلى الشهادات في هذا التخصص من خارج اليمن ولدي شهادات لمؤهلات وخبرات مرفقة بطلب الوظيفة، ولكم أن تجربوا العمل معي لفترة محدودة، ربما تعجبكم مهارتي في التفاهم والتعامل مع الصم والبكم. لقد جذبني مشروعكم الخيري والمميز)

كان يبدو كمن توقع الرفض فأعد وسائل الدفاع والهجوم والإصرار.

وهذا أكثر ما يروقها في كل من يطلب هدفًا.. الإصرار عليه.

كان لنظرته الواثقة والمبتسمة وملامحه المعبرة كأنها تتكلم بلغة فصحى تأثير المغامرة على قرارها، فقد هزت رأسها موافقة وهي تقول له:

_ لنجرب. عليك تقديم أوراقك إلى زميلتي هالة في الدور الأول لتقوم بإجراءات إلحاقك بفريقنا.

لم تكن لتندم مع مرور الأيام، فقد أصبح محمود يفوقها إبداعًا وإخلاصًا لدار العفاف ربما وجد فيه حلمه أيضًا في محاولة إنصاف هذه الشريحة التي لا تجد الاهتمام الكافي من الدولة.

لقد أصبح محمود ورفيقتها وفاء التي التحقت بالعمل معه ركني الدار الأساسيين لتفانيهما وإخلاصهما من أجل الآخرين.

وفاء.. قصة أخرى تركت في قلب عفاف وشمًا لا يزول، وفاء ضحية زواج غير متكافئ سلب منها قلبها وشبابها، وأحلام أنثى بزواج مستقر وهادئ.

أحبته بجنون فقد كان زوجها الذي تزوجته يافعة، ريفية ترى في زوجها الكاتب الصحفي والمثقف اللامع كل روعة رجال الأرض، ويراها هو نكسة العمر واختيار الأم الذي لم يملأ فراغ قلبه ولن يملأه.

كان الفرق شاسعًا في ثقافتها وثقافته؛ في حبها وإخلاصها له وحبه وإخلاصه لها.

لذا هجرها.. في إعلان ضمني عن تبرئة من علاقة غير متكافئة لم يردِمها أي اتصال جسدي محموم مع عاشقة..

رحل بعيدًا إلى دولة خليجية يعمل في إحدى القنوات كمحلل سياسي في الشأن العام لليمن قد تحلل من ارتباط عاطفي يخص الشأن الخاص له.

واحترقت هي بتبعات الحب.

شوق.. غيرة..وألم..

طيلة سنوات قليلة من الزواج لم يكن يربطها بالرجل الذي أحبت سوى خيط رفيع لا مرئي من الوهم.

ذلك الخيط الرفيع بينهما لا يشبه شعرة معاوية وإن كان رفيعًا خفيًا مثلها؛ له عمق بحر وسطوة إله عليها أما عليه.. هي لا تدري..لكنها تدفع قرابين ذلك السر الإلهي من روحها بخشوع العاشق المريد بصمت من لا يدرك القبول.. هو لا يجد تفسيرًا لخيط العشق الرفيع ذاك لكنها سنة في الحياة ألا يفهم الرجال النساء..

من الصعب أن تجد تفسيرًا علميًّا لظاهرة عشق تحدث في العمر مرة وقد لا تحدث أبدًا؛ انتهى عصر خارقات الحب منذ ترك قيس الجنون وقرر البحث عن لقمة العيش واكتفت ليلى بتطريز وحياكة الحياة.. لكن طلاسم العشق نافذة فيها..

مؤمنة به ترفع صلواتها إليه كل لحظة، وتدرك عيونها الخشوع فتتساقط الدموع ساجدة في محرابه..

إنها تذكر الوقت به وتؤرخ لعمرها بوجوده.

ساعتها الرملية توشك على الانتصاف والخيط الإلهي الرفيع يزداد طولا كلما قصرت هي المسافات مدد هو في الابتعاد..

ماذا لو قطعت هي شعرة معاوية بالصبر والهجر هل تهتز شعرة في رأسه هو..

ماذا لو قطعت هي الخيط الإلهي هل تسقط روحها المعلقة به في الموت حتى الموت؟

لكنها ناضلت كي تردم الهوة بينهما، بدافع العشق.

والعشق أقوى دافع للعطاء من أجل أن نصل إلى حيث نتمنى.. قلب المعشوق.

استماتت كي تكون له ما يريد، فكان لغيرها كما يريد هو أيضًا.

كانت كلما داهمها داء الفقد و اعتركتها حمى الشوق إليه، استجدت ذاكرته البعيدة قطرة دواء فتأتيها كلماته إبرًا مسمومة تصيبها بصدمة برودة و بتسمم عاطفي يظل القلب بعدها مشلولاً عن الخفقان في ألم.

قد يصاب بإغماء وغياب عن الحياة لذا قررت جمع عقاقيره السامة كي تصنع دواءها منه..

في موجة حنين يومية أخذت قلمًا وورقة، كتبت بحروف إعلانية كل كلمة صفعها بها؛ كتبتها عشرات المرات..وراحت تتلو أول وصفة علاجية مرة الطعم..

كم من الكلمات عليها أن تتجرع حتى تشفى منه ؟! لقد أغدق عليها بالوجع كما أسرفت هي في الحب.

لكنها مصرة على الشفاء.. يكفيها هذا الهذيان به طوال العمر.. ليت كل الأمراض كمرضها تؤدي إلى الوفاة..

إنما قد تموت بعض الأجزاء أو تفقد عملها الوظيفي كهذا القلب. .فقد مات في خطأ عشق أثناء جرعات دواء من فقد..

لقد أوصلتها حالتها العاطفية إلى كيان يحتاج إلى إنعاش وعناية مركزة، ولم يكن هناك عناية ولو مجاملة وأخيرًا طالبته بالطلاق فطلقها ببرود في عملية بتر جراحية لابد منها، بعد أعوام من الأمل..

عفاف التي ذاقت مرارة الحب والهجر والرفض، التحمت قلبيًّا مع وفاء وصارتا صديقتيّ وجع وذكريات حب محطم.

تلتقيان كل يوم في نذر صامت ألا يكون لرجل وشم آخر في روحيهما..

ببساطة لأن تلك الروح لم تعشق سوى رجل وحيد.

لذا كانت وفاء تعمل في دار العفاف كآلة لا تصدأ بعواطف القلب.

تعاملها مع كل من حولها من الذكور جاد وصارم، وتصرفاتها مثالية لا مبالية، فقط حين تخلو بعفاف ربما تترك ملامحها تسترخي وتذرف الدموع بوجع.

ولكم تشفق عليها

يمكن أن ترى فيها أنثى تدعي القوة وهي تتعثر في ضعفها الأزلي.. كيف للحب أن يصنع منها شيئين مختلفين؟

أنثى تضج بالقوة والشراسة كلبؤة حين تدافع عن حبها ضد عدو خارجي؛ ولكنها تئن كقطة جريحة حين تصاب باليأس من هذا الحب ويفترسها عدو داخلي بين أضلاعها.

تشفق عليها وهي تسير منزوعة الروح تطوف أماكن الشغف الراحل في ذاكرتها كمن يسير في جنازة نفسه وينتظر الدفن. وهي تهمس آيات العشق الكاذب التي يمحى صدقها بنفس سرعة محوها.

ترغب أن تصيح بها: توقفي عن هذا الهراء.. لا أحد يستحق هذا الاستشهاد..

في الحياة الكثير لتتعلمه قطة ريفية غير عبور الشارع مفتوحة العينين؛ تعابثها أحلام اليقظة؛ في الحياة انتكاسة أقوى من اكتشاف موجع للغباء؛ وفي الحياة إحباط أكبر من اختيار سيئ ومتأخر؛ في الحياة ألم غير ألم الحب؛ هناك الكرامة والكبرياء.

في دار العفاف أيضًا كان هناك "هالة" رفيقة العمل لعفاف منذ ولوجها عالم العمل في المؤسسة الأم.. منذ كان حازم زميل عمل مشترك ومدير مشروع انتهى وانتهى حضوره أيضًا.

لعل "هالة" ذات الجسد الممتلئ والوجه المكتنز و المحمر كلما أطلقته من تحت النقاب هي المرأة الأسعد في نظر عفاف، لم يكن هناك وجود لما

يسمى بأزمات الحياة في قاموسها، تزوجت بزميلها في قسم الشئون المالية عقب قصة إعجاب سريعة، رجل جاد كالأرقام التي يتعامل معها، وهي التي لا تستطيع كتمان ضحكاتها لأتفه الأسباب، لكنهما شكلا بتناقضهما الجسدي و الطباعي حياة زوجية سعيدة و هادئة.

حتى مشكلة الحماة الأزلية كانت من أكبر النعم في حياة هالة فهي لا تفتأ تدعو لوالدة زوجها بطول العمر كي تهتم بالصغار الذين تنجبهم بانتظام كل ثلاثة أعوام لكي تمارس هي عملها الذي تحبه في المؤسسة وتتمكن من مساعدة رجل الأرقام ورجل قلبها على تكاليف الحياة الباهظة.

لقد كانت نحافته وطوله مصدر تندرها كما كان امتلاؤها و قصر قامتها عنه مصدر سعادته وإعجابه، ربما لهذا كانا زوجين سعيدين، فرجل الأرقام أحب "هالة" كما هي مثلما أحبته كما هو.

لقد كان التوظيف في الدار حسب الاحتياج لذا بدأت عفاف عملها الإداري بفريق صغير أصبح كعائلة تدير شئون بيت كثير الأفراد.

اكتفت في البداية بمحمود و وفاء وهالة والخالة رقية.

الخالة رقية امرأة خمسينية حين تضحك تضيء غمازتي خديها ضاحكة مثلها، وجدت نفسها بعد زواج ثلاثين عامًا ملقاة في الشارع بلا مأوى ولا رفيق يؤنس وحشتها، فعلى إثر خلاف عائلي بسبب الأولاد العصاة وجدت نفسها امرأة مطلقة

بلا حقوق أو إثبات حقها في السكن الذي بنته مع شريك العمر حجرًا حجرًا، لم تكن تعرف أن الزمن يمكن أن يحيل حياتها إلى لعبة حقوق غير مثبتة.

تركها أولادها وراءهم، وتركها زوجها ناقمًا عليها وقوفها معهم، وقبل أخيها على مضض أن تبقى تحت سقفه على أن تعيل نفسها وتبعد عن بيته شر أولادها الثلاثة.

تعرفت عليها عفاف عن طريق وفاء فقد كانتا تسكنان في نفس المنطقة وتعرفها وفاء و تعلم حاجتها لإعالة نفسها بعد أن تنكر لها الزوج والأبناء لذا اصطحبتها ذات صباح إلى الدار كي تهتم بشئون نظافته مقترحة على عفاف مناسبتها للعمل.

******

أحاول بالغياب حضور قلبي..

فلا عدت ولا انتهى هذا الغياب..

فكرية

ستسافر إلى مدينته..

حلم آخر يسقط بين يديها في غفلة من أحلام ركنتها في خزائن القلب، لقد كانت تتمنى ذات يوم أن تذهب إلى هناك..ربما كي تراه..وربما كي ترى مدينة فتنتها أوصافها التي كان يصبغها عليها كأنثى حقيقية.

لكن الأيام أزاحت أحلامًا ورغبات كثيرة ركنتها جانبًا ربما لأنها تخدش ما تبقى من كبريائها وربما لأنها مستحيلة..

لكنها أخيرًا ستسافر إلى مدينة إب الخضراء.

حتى معضلة سفرها بدون محرم تلاشت بقبول خطاب سفرها برفقة زميلات وزملاء في رحلة عمل نظمتها المؤسسة لإفادة فرع المؤسسة هناك. المسافة بين صنعاء و إب طويلة لمن يسافر لأول مرة في حافلات النقل الجماعي و التي تسير بتأنٍ في طرقات ملتوية وجبلية، على مشارف المدينة الخضراء تختفي تلك الصخور السوداء القاتمة التي تميز مدخل صنعاء، وتبدأ السهول الخضراء والجبال المكسوة بالعشب وساقيات الماء تشكل لوحة اشتهرت بها هذه المدينة، حتى الهواء يبدو مختلفًا وأنت تقترب من نقيل "سمارة " ذلك الجبل الشامخ في بهاء منقطع النظير لا يغلبه بهاء سوى جبل بعدان الأخضر وينافسهما جبل مشورة ووراف، جبال تحتضن المدينة بأسرها. ولعل أجمل ما يميز هذه الجبال هو عشرات القرى المنثورة كاللآلئ على سفوحها و حولها، قرى مازالت تحتفظ ببدائية الإنسان اليمني وعزلته عن ركب الحياة.

إب..مدينة ناعسة شوارعها الهادئة تزدحم بالصخب في ساعات الصباح ثم تتحول إلى مرتع للريح والصمت مساءً، سوى تسكع نسائها في الأسواق وقت مقيل الرجال في مجالس القات.

حتى مدينة إب القديمة ضيقة الشوارع والمرصوفة بالحجر الأملس ودورها القديمة الآيلة للسقوط تخلو من الازدحام من بعد الظهيرة متهيئة لمجالس القات المعتادة.

أهالي المدينة الهادئة يحملون ملامح مدينتهم من طيبة وبساطة وكرم وحفاوة بكل من دخل مدينتهم.

إب مدينة تخلو من الشركات الكبرى والمصانع ومعالم الحاضر والمستقبل وكل ما يمت إلى التقدم أو الازدهار، حتى حرفة السياحة فيها لم تجد من يهتم بها أو بتطويرها. ربما لهذا يترك أكثر الطموحين مدينتهم الوادعة من أجل فرص للنجاح بعيدًا عن خمولها وكسادها.

ليست المشكلة في عجز الدولة فقط وإنما في أبناء المدينة الميسورين أيضًا والذين يغادرونها بعيدًا بحجة أنها مدينة صغيرة وخاملة و باستطاعتهم عوضًا عن ذلك إيقاظها من خمولها وإنعاشها بمشروعات خلاقة تجعلها في مصاف المدن السياحية.

فتياتها الأجمل مازلن يحملن براءة الفتاة الريفية وعفويتها، وكفاح المرأة للحصول على حق التعليم والمشاركة في صناعة مستقبل اليمن.

قضت عفاف ثلاثة أيام في مدينة إب..تلتقط أذناها لهجة حازم من أفواه كل من تحدث إليها من أبناء المدينة، وترى وجهه في كل الوجوه، وهي تسير في طرقها تتخيل أنها ستلتقيه صدفة هنا أو هناك..

لكنها لم تسأل عنه..

رغم معرفتها أنها لو سألت عنه فستجد من يخبرها بين زملاء العمل فمجال عملهما واحد..

كانت تشعر ببعض الانتصار للذات بصمتها عن السؤال، من المهين أن تلاحق شخصًا -رفضك مسبقًا- لمجرد أنك أحببته بإسراف..

وفي طريق العودة إلى صنعاء ذرفت دموعًا جديدة.. كأنها كانت على موعد وأخلفته، لكنه حزن يخالطه الفرح.. لقد استطاعت أن تصمد أمام شوقها لمن لم يشتاقها أبدًا..

*****

بمرور سنوات حافلة بالانشغال صارالعمر حفنة رمال في كف مرتخية..

يتسرب بسرعة وصمت حزين..

لم تعد تهتم كم أصبح عدد أبناء الإخوة والأخوات،أو عدد سنوات عمرها المتسارعة في بطء الوجع، لا تنسى ولا تريد أن تذكّر نفسها، رهينة اختيار أساءته منذ البداية..

تتحرك لأن كل شيء حولها يتحرك، تقوم بكل ما ينبغي عليها لأنه يجب عليها القيام به، حتى حماستها لإنجازات الدار كانت واجبًا تُخلص له و يجب عليها أداؤه، كي لا تستيقظ أو يفتك بها الحزن، شيء ما كان منطفئًا في أعماقها..

و الحياة تمر.

أحيانًا نمارس العيش كما يمارس الأموات العدم، لكن بصخب الحياة الذي يدفعك إلى الحركة رغمًا عنك حتى تصبح الحركة جزءًا منك.

ولقد كانت سنوات عمرها حافلة بالحركة في الاتجاه الصحيح ، فقد خلقت من إحباطها محركًا قويًّا يدفعها إلى الأمام لتحقيق ما تصبو إليه ، صار مشروع الدار له أقسامًا عديدة ، كلها تخدم كيان المرأة والفتاة التي أضعفها قدرها ونصيبها من الحياة.

ترى في قصص الفتيات اللائي تساندهن عزاء لقصتها المدفونة في أعماقها دون مساندة من أحد ، ترى في مرح سلمى ورفيقاتها عزاءها أنها لم تعد تعرف المرح، اختلاطها بالكفيفات أشعرها أنها هي الكفيفة حين ترفض أن ترى غيره من الرجال حولها، رفضها الدائم لكل من تقدم لخطبتها مدفوعة بالولاء لحب ربما لم يكن حبًا..

انتظارها له.. وإن لم تعترف لنفسها بهذا الانتظار ، لكنها كانت على موعد غير معلن مع الانتظار في مقعد إلى آخر العمر.

لقد أدركت أن العمى مكمنه الداخل والكفيفات يبصرن أفضل منها ، كل يوم ترى في أرواحهن الشفافة ما يغنيها عن ادعاء البصيرة.

"ريم " فتاة كفيفة.. تحلم أنها ستدخر يومًا مبلغًا يتيح لها السفر إلى الخارج كي يعود إليها بصرها فقد قال أحد الأطباء لوالدها إن هناك أملاً في عودة بصرها لكنه مكلف جدًا ويحتاج إلى السفر خارج اليمن.

ريم ضحية جهل المجتمع و فشل أطبائه، ذهب بصرها بخطأ طبي كثيرًا ما أزهق أرواحًا أو أقعدها.

"ريم " ومثلها كثيرات أحلامهن تستحق الحياة ، وأمامهن تتقزم أحلامها فتسعى إلى رفع حرجها بالسعي جاهدة من أجلهن.

حين غادرت "ريم " وثلاث فتيات أخريات للعلاج شعرت أن جزءًا من روحها يشفى بشفائهن.

"سعاد" التي قذف على وجهها مراهق طائش حامضًا بدعوى الغيرة عليها وتفضيلها خطيبًا آخر، أفسد جمالها وثقتها في كل يد تمتد نحوها، لم يشوه ذلك الوجه الجميل فقط بل جعل أكبر أمنياتها الانتقام منه وحرقه بالكامل.

و"مهجة" ابنة العاشرة التي أطاحت بها دراجة نارية سلبتها حقها في السير باستقامة و حولتها إلى عرجاء تنتظر قطعًا معدنية تساعدها على الوقوف.

تشعر أن داخل كل فتاة متألمة يقبع حزنها هي ، فتتفاني في طرد هذا الحزن من قلوب فتيات أخذ القدر منهن أشياء كبيرة..

أشياء أكثر جدية من وهم حب لرجل كان يتسلى وقت الفراغ..

أهم من وهم عشق من طرف واحد ، أخاف المعشوق من طوفانه، حتى رآها بحر حبّ سيخنقهما غرقًا ، فتركها وهرب.

فتيات الدار ونساؤها هن عائلتها الكبيرة التي تستحق الاهتمام والبقاء قوية، تواجدها على حافة مشكلة أو طارئ كان يبقيها بعيدًا عن نفسها.

انغماسها في أوجاع الغير أنساها وجع القلب وملحقاته من حنين أو شوق أو فقد ربما خالطها شعور الاغتراب وهي ترى أخواتها الأكبر سنًا يعشن حياة طبيعية، ملؤها حب الأبناء والزوج، ربما تنهك من مناكدة جمال وزوجته وكلماتهما المسمومة، ربما يضيق قلبها من أصناف محنطة من البشر تقابلهم كل يوم وتضطر لسماع أسطواناتهم الممجوجة وفلسفاتهم التي تمقتها، لكنها تجد في العناد ملاذًا وترى في الرفض سلاحًا تركن له..ويبقى انغماسها في أعمال الدار كل متعتها التي تنسيها مشكلاتها الخاصة.

******

_ خطاب.. أرغب في نزع النقاب نهائيًّا ، لم أعد مقتنعة بوجوده.

اكفهر وجه خطاب وعلاه الوجوم، يدرك أن أخته لم تعد مثل أية فتاة يمكن أن يخشى عليها، وأن الزمن تغير كثيرًا ،وأنها في السنوات القليلة الماضية نضجت في تفكيرها أكثر مما ينبغي ، فلم تعد تفكر فيما ترغب به فتاة في سنها تجاوزت الثلاثين بسنوات.

لم تعد تفكر في الزواج والإنجاب والحياة ككل فتاة في العائلة ، أصبح لها طموح نبيل في تحقيق شيء لمجتمعها وليست مجنونة كما يحب أن يسميها جمال ،لكنه يخشى ردة الفعل نحو كلامها هذا.

يخشى نظرات الناس له ولها وكلمات السفهاء هنا أو هناك، يخشى جمال وما سيفعله بها.

_ لا تجعلي هذه الفكرة تسيطر عليك ، يوجد عشرات النساء الناجحات وهن منقبات ولم يقلل من قدر عملهن أو شخصياتهن وجوده، السفور ليس دليلًا على النجاح يا أختي.

_ ليس الأمر هكذا.. لم أعد أريده ولست مقتنعة به منذ البداية ، لا علاقة لما أفكر به بكلامك.

_أعرف أن لك ملء الحرية والإرادة في قرارك وأنا أثق بك يا عفاف، لكن ضعي نفسك مكاني وكم من الكلام الأحمق سيلقى على مسامعي، وأخوك جمال كيف سيتصرف عندها ؟

قالت بعناد لم يعد يغادرها:

_ لا تجعل أراء الناس تتحكم بك أو بحياتك يا خطاب، الجميع سيحيا وفق حساباته والمتردد من سيتوقف حاله، أنا لن أرضخ إلى رأي الناس في تصرفاتي ويكفيني أني مقتنعة بها ، أما جمال فلا حق له علي بوجودك..

_ حسنًا رغم عدم قناعتي لكنك حرة.. تحملي نتيجة أفعالك بشجاعة.

حرصت في اليوم الثاني أن تخرج أمام العائلة كلها وهي ترتدي حجابها دون نقاب تعلم أن رغبتها وصلت إلى جميع حجرات البيت.

"جمال" الذي قفز كالمجنون كي يمنعها من الخروج ، قابلت صراخه الرافض والمهين ببرود أشعله أكثر، والصفعة التي دوت على وجهها من كفه المتشنج ، كانت كفيلة بجعل "خطاب" يقف متصلبًا أمامه بصرامة:

_ لا شأن لك بها منذ اليوم يا جمال ، عفاف مسؤولة مني فقط.

خرجت من البيت الكبير لأول مرة تشعر بلفح الهواء البارد على وجهها الحر من اعتقاله.

لن تسمع بقية الشجار الذي سيدوم أيامًا حتى يعتاد الجميع هذا الوضع..

لقد علمتها الحياة أن الوقت كفيل بتغيير كل شيء، وبحدوث ما لا نتصور حدوثه، كل ما عليها هو أن تبذل وتضحي بالصبر والوقت حتى يصبح مصيرها بيدها فقط.

اعتادت أن تحصل في النهاية على ما تريد..

إلا هو..

ربما يعوضها القدر خسارتها الكبرى لقلبها وربما تساعدها إرادتها في الحصول على كل ما يحق لها كما قال (باولو كويلو) "عندما ترغب في شيء ما فإن الكون بأسره يطاوعك على القيام بتحقيق رغبتك"..

لكن هو لم يكن مما يحق لها أبدًا، رغم رغبتها في حبه أكثر من أي شيء آخر في حياتها، لقد تمنت على الله كثيرًا أن يهبها حبه ولم يحدث.

لهذا هي تشعر بنقمة خفية على كل شيء..

و لم تكن معركتها مع النقاب ، فلقد أصبح لصيقًا بوجهها منذ عرفت نفسها؛ لقد اعتادت عليه وعلى كثير من العادات التي شعرت أنها تخنقها..

لم تكن معركتها _مع أن النقاب كفكرة تؤرقها، رغم كل الحكايات التي تزينه في عقول النساء وتستحسنه لهن، وأحيانًا ترغمهن على ارتدائه بغير قناعة وإنما كفرض وواجب وطلب الأجر والثواب من الله.

لم تكن تؤمن بحصولها على أجر شيء تكرهه.. وربما تلعنه كثيرًا..

إخفاء وجهها يشعرها بالإهانة وليس التكريم، معاملتها كشيطان فتنة يجب حجبه لا تعجبها، تفضل ألا تعامل كمصدر للشرور وسقوط الرجل في الرذيلة، فمن يرغب في السقوط لن تمنعه قطعة قماش أبدًا..

الأخلاق هي المحك.

لقد كانت معركتها مع الرفض فحسب..

فقط تريد أن ترفض شيئًا فرض عليها ليست تريده أو مقتنعة به.

تريد أن ترى في وجوه كل من حولها من الرجال نظرات الاستنكار و ربما الاحتقار لشيء يعتبرونه قلة حياء و لا يجوز لها..

لكنها فعلته نكاية بعقولهم الصدئة، فمن ستحافظ على نفسها ستكون بنقاب أو دونه.

لقد ذهبت ذات يوم إلى شقة رجل غريب وهي ترتدي النقاب والعفة، ذهبت لأنها أرادت الذهاب وساعدها نقابها على ذلك، ولأنها كانت تثق بذلك الرجل حتى الاستشهاد في سبيله.

أرادت أن تثق باختيارها حتى النهاية..ولم تندم.

ما أسهل أن يكون النقاب وسيلة لإخفاء أمر لا تريد أن يعرفه الآخرون.

وكم من هفوات كانت منقبة حين ارتكبها فاعلوها وهم سعداء بالتخفي.

******

أشياء كثيرة تتغير بتغير أفهامنا..

الناس حولنا يتغيرون ببطء شديد، لكنهم يتغيرون فعلًا، فقبل خمسة عشر عامًا تمامًا لم تكن تحلم بوضعها هذا..

لقد كانت تحبو مغمضة العينين في عالم ينظر إلى المرأة الطموحة شزرًا، ينظر إلى المرأة سافرة الوجه كنكرة، حتى وهم يظهرون الاحترام الزائف فقد كانوا يكنون قلة احترام تفضحهم ألسنتهم في مجالسهم الخاصة.

تذكر وهي يافعة حكايات تناقلها الأهل عن نساء حاولن في بيئة قبلية معقدة الظهور كنساء مؤثرات لهن أعمالهن الخاصة ومشروعاتهن الطموحة في مجتمع ضيق التفكير، لقد كانت عبارات القدح المشين تلاحقهن كشبح يخيف كثيرًا من الفتيات أن توصم مثلهن بقلة الحياء أو الجراءة الوقحة.

حين قابلت السيدة "فتحية" ذات مرة في لقاء جمعهما صدفة، مر في خاطرها تلك الكلمات التي كانت تسمعها عنها وهي طالبة في المرحلة المتوسطة، لقد كانت حكايات الأستاذة فتحية و التي كسرت حاجز _المرأة للبيت فقط _ ووصلت إلى مراكز مرموقة في منظمة للمرأة اليمنية حكايات تناقلتها الألسن بتنطع مثير لخوف عفاف حينذاك ومثير للقرف الآن من سخافاتها وافتراءاتها.

هكذا هم الناس ينظرون بريبة لكل شيء خارج نطاق المألوف ثم يعتادون عليه كواقع لا بد منه.

السيدة "فتحية" الآن بمائة رجل كما يتناقلون عنها ولم تعد بعبع الفتيات الصغيرات أبدًا.

لعل العقول العربية تحتاج وقتًا أطول من غيرها كي تغير مفاهيمها البالية، والتي لا تواكب زمن يتطور بسرعة الضوء، وعقل اليمني يحتاج إلى ضعف ذلك الوقت، فالبيئة اليمنية من خصائصها الحرص على كل ما يتوارث بخوف أن يتغير وليس بجهل التغير فقط.

ربما يعود ذلك إلى كون الوضع لم يتغير كثيرًا من قيام ثورته المجيدة في أيلول فالتعليم هو الأسوأ على الإطلاق، ونسبة الجهل الثقافي تتنامى بتخرج دفعات المتعلمين، ولا نية إلى التغيير خوفًا من تغير الحال.

يصبح الوضع السيئ مقبولًا دائمًا مع الاعتياد عليه يرادفه الخوف من مجيء وضع أسوأ منه.

الخوف من التغيير يشمل كل جوانب حياة الإنسان اليمني العادية فكيف بما توارثه من النظرة التسلطية القاصرة نحو المرأة ؟

بوضعها..بمكانتها..

بما خلقت له..

الرجال مثل جوناس سولك هم من يستحقون امتناني..

ليس لأنه اكتشف لقاح شلل الأطفال..

بل لأنه علمني أن لكل وجع لقاح..

وكانت معرفتك لقاح قلبي ضد شلله الدائم كلما اجتاحه داء حبك..

فكرية..

أخبرت أيمن سائق الباص أن يأتي لأخذها في مشاويرها الخاصة لتسهيل أمر تنقلها ، فكرة شراء سيارة خاصة بها أصبحت ملحة ، وتنتظر فقط التفرغ لتعلم القيادة.

"أيمن " شاب عشريني يعمل كسائق حافلة في المدارس التي التحق بها أبناء خطاب وجمال ، يصر طوال الطريق وهو يقوم بإيصالها بحشو رأسها بقصص مظلوميات الرجال التي سببتها النساء ، كان يكرر دائمًا أنه ضحية زواج مبكر ولكن بتغرير امرأة ، قال إنه رآها في المدرسة فوقع على وجهه في غرامها، لا يدري لماذا رآها أجمل فتاة رغم ضخامة جثتها، وحين تقدم للزواج منها أدرك أنه ارتكب في حق نفسه جريمة العمر كما يجب أن يقول.

_ النساء يا أستاذة مخادعات محنكات ، تقنعك أنها قدرك الأجمل لا تدري كيف؟ ثم تجد أنك وقعت في شر أعمالك على الإطلاق.

للرجال قدرة عجيبة على تشكيل الحقائق حسب أهوائهم ، فزوجة أيمن لم ترغمه على الارتباط بها ولم ترغمه على الإعجاب بها، نزواته المبكرة هي من تحكمت به والضحية امرأة.

في طريقها اشترت شطيرة جبن مع الخبز الأسمر منذ زمن لم يعد الطعام على قائمة اهتماماتها، في قرارة نفسها كانت تشعر بالرضا.

فلشهور طويلة بعد رحيله عن حياتها أصابها الحزن بوزن مضاعف،فبسبب الاكتئاب كانت تتناول الطعام لمجرد الأكل فقط حتى زاد وزنها وأصابتها كآبة مضاعفة.

ليس هناك أصعب من شعور المرأة أن وزنها يزيد في خط موازي لشعورها أنها غير مرغوبة.

الإحباط والاكتئاب هما السبب الخفي لفقدان الرغبة في الاهتمام بالشكل وهما نتيجة أيضًا لعدم الاهتمام بالشكل الأنثوي والحفاظ عليه من ضربات الزمن الخاطفة.

إيقظها من شرودها صوت السائق أيمن وهو يقول:

_ إنها في العشرين لكنها تحولت في أيام الزواج الأولى إلى كهلة في السبعين، لم تعد تجد الحافز لتصنّع الجمال والرقة، كأنها أطبقت عليّ وانتهى الأمر، أنا ضحية يا سيدتي.. ضحية لحيلة الأنثى بالإيقاع بزوج غبي.

ابتسمت..

" هل يفكر نحوها كصديق أم فتاة بلا زوج يدلي إليها بنصائح حول الإيقاع بزوج غبي..

عاد يقول:

_ لماذا فتاة ذكية وجميلة مثلك تعزف عن الزواج وترفض الرجال، لعلك تظني أن الرجال غير جديرين بامرأة مثلك ؟ في حين تتهافت النساء على الزواج بأول خاطب..

أجابته كي تنهي حديثًا يتجه إلى حيث لا تحب:

_ ما بك اليوم يا أيمن ؟ نقمتك على زوجتك تجعلك تريد معاقبة كل النساء بالزواج، وابتسمت وهي تضيف:

_ ربما لم تخلق كل النساء للزواج، وفكرة احتياج المرأة للرجل بشكل كامل يجب أن تختفي.

وصلت حيث تريد، وأوقف السيارة بأسف من يتمنى خوض معركته الكلامية حتى النهاية، لكنها نزلت على عجلة من أمرها وهي تلقي إليه بالتحية بإشارة من يدها.

******

عند بوابة دار العفاف ينتظرها كالعادة العم مختار متكئًا على مسنده الذي صنعه بيده كي يوفر لنفسه أكبر قدر من الاسترخاء فوق مقعده الطويل الذي لم ينل قبوله رغم سنوات العشرة الطويلة، كان يصر على أن الجلوس على الأرض يجعل الإنسان أكثر تمسكًا بعقله وهدوئه، لكن عفاف أصرت

أن هذا لا يليق بالعم مختار فاشترت له مقعدًا خشبيًّا مكسوًا بالقطيفة السوداء كي يرتاح عليه حارسًا لبوابة دار العفاف.

كانت تجلّ هذا الرجل ليس لأنه في سن الوالد الذي لم تشبع من وجوده قط.

لكن هذا العم مختار كانت له عينان تشبه عيون باقية في ذاكرتها إلى الأبد، كانت نظرة من تلك العينين ترفعها إلى سدرة المنتهى..

كم هو موجع لها هذا الشبه الغريب.. رغم أنها تستلذه بصمت.

العم مختار عمل معها في الدار من شهوره الأولى، كان قد جاء بابنته الشابة المصابة بقصر في إحدى ساقيها، أتى بها كي تلتحق بإحدى دورات تأهيل الفتيات في حرف تساعدهن على المعيشة، وعرض على عفاف أن يعمل كحارس للبوابة أثناء تواجد ابنته، لكنه استمر بعد ذلك في العمل خلال السنوات الماضية وبعد زواج ابنته في إحدى القرى البعيدة.لقد قبلت عمله في الدار بسهولة..

كي تذكرها عيناه بعينين غابتا عنها للأبد.

كل يوم يجب أن تقف أمام البوابة تستمع في شرود إلى حكاية يبتكرها العم مختار عن فتيات الدار وكيف سيجد لهن الأزواج الملائمين لو أذنت له هي فكل فتاة في نظره خلقت لرجل وعليها أن تجده إذا تاه عنها هو.

كان يصر أيضًا أن رجلها هي أيضًا في مكان ما وسيلتقيان لا محالة طال الوقت أم قصر.

العم مختار أحيانًا يقول حكمًا ككونفوشيوس يمني لا يؤبه به أو بحكمه.

تعتبره هي الجندي المجهول في عائلته الكبيرة، فزوجته امرأة قوية لها كاريزما تسلطية قوية ألغت شخصية الأب المهيمن، وأصبح مجرد مصرف لتحويل المال ينفق على عائلة تسير شئونها الأم باقتدار لا يخلو من الإرهاب، وحين بلغ به العمر فصل الخريف فضل اعتزال البيت والسكن في مقر عمله في الدار بعيدًا عن تسلط الزوجة وإهمال الأبناء.

تفكر أنه الزوج المناسب للخالة رقية، فهي مثله ظلمتها أقدارها بزوج جبار سلخها من حياتها كأن لم تكن.

في ركن من حوش الدار كانت سلمى الجميلة مطرقة في شرود لم تلحظ معه اقتراب عفاف منها، سلمى من الفتيات القلائل اللاتي يصلن الدار لينزعن نقابهن حال تجاوز البوابة الحديدية ، وحين تلومها الفتيات لوجود معلمين ذكور أو دخول رجال غرباء، تقول:إن دار العفاف بيتها وكل من فيه أهلها وعائلتها فلا تشعر بالحرج.

إطراقها أثار قلق عفاف فالفتاة مرحة لا يغادرها الابتسام رغم إعاقتها المحزنة.

_صباح الخير سلمى الجميلة. أصبحت عفاف تجيد إشارات الصم والبكم جيدًا بفضل محمود.

_ ما بك عزيزتي..؟

دفعت إليها سلمى ورقة مطوية بعناية تفوح منها رائحة عطرية وعلى أطرافها رسوم الورود وقلب ثقبه سهم.. إنها إحدى رسائل الزمن الجميل قبل اختراع الهاتف الذي يقضي على أمل المحب بسرعة خاطفة، بدلًا من الانتظار المؤلم ألمًا قد يكون لذيذًا على قلب العاشق.

قرأتها على عجل، تكاد تعرف ما كتب فيها دون قراءة، أشارت:

_ كم عمره ؟ وهل ينوي الارتباط ؟ هل هو جاد ؟

إنه رجل مناسب، تبادلا رسائل عديدة، رآها صدفة في الدار ويظن أنها من العاملات هنا، أغرقها بالحب والأماني حتى أحبته..

ما المشكلة إذًا ؟

يرغب في محادثتها هاتفيًّا كي يتقدم لخطبتها..لا يعرف بإعاقتها..

سالت دموع سلمى توجز القصة..

همست عفاف وهي ترتبك بإشارتها:

_لا تبتئسي هكذا، إذا أحبكِ فسيقبل بك كيفما كنتِ.

أخبريه فقط.. ولا تبكي على رجل يرفضك أبدًا _تنصح بذلك كثيرًا رغم أنها بكت كثيرًا أيضًا_..

في الأيام التالية عرفت عفاف إجابة الرجل فقد كانت واضحة في عيون سلمى الحزينة وعدم حماستها لشيء، ربما انقطع تواصله بها كإشارة يفهمها الصم والبكم والمبصرون أيضًا بأنه غير راغب بفتاة معاقة ولو كانت بروح ساحرة ووجه جميل.

كلما رأتها تضع رأسها الجميل على صدر الخالة رقية في الدار تدرك أنها تخرج شحنة مكبوتة من الألم.

لقد تركتها تستمتع بشعور الشهيدة المعذبة لأيام قبل أن تعطيها خلاصة تجربتها في الحياة قالت لها أخيرًا:

_الحب الصادق يزيح كل شيء أمامه يا سلمى حتى الإعاقة، إنه أشبه بجرافة ثلج هائلة تفتح طريقًا للشمس وللدفء؛ أرض صلبة نضع عليها أقدامنا في الحياة.

أما الحب الخادع للتسلية فهو هش يسقطك في هوة من اليأس والحزن حال أن تضعي قدميك فيه، إنه متحرك حسب المزاج كرمال تخنقك، إنه وهم كرحلة على غيمة ما تلبث أن تختفي أو تمطر بكاء.

خسارتك لشيء لم تربحه أبدًا..

لن تؤثر كثيرًا في رصيدك مناعتك العاطفية.

حين تعود من عملها عليها أن تلتقي بجمال شاءت أم أبت، أنه يحتل الدور الأول في بيت الولي، وهذا يعني أن تلتقيه في أثناء صعودها إلى الطابق الأعلى، في البداية كانت ترجّع أمر ملاقاته للمصادفة، لكنها مؤخرًا أدركت أنه يتعمد انتظارها مع طفل من أطفاله، كي يمارس عليها التنكيل بلسانه اللئيم.

أحيانًا يقول لابنته أمل: هل ستصبحين كعمتك المجنونة نصف رجل، يرفض الرجال الارتباط بك ؟

فتجيبه الصغيرة بخوف: لا لن أصبح.

وأحيانًا يقول لطفله ماهر: هيا نادي العمة عفاف قل لها يا ماما، أنت طفلها بدلًا من طفلها الذي لن يأتي.

لم تكن تفهم لماذا يجابهها بهذا العداء وهذا اللؤم ؟

ربما يشعر أنها كسرته أو كسّرت كلامه فلم يغفر لها هذا بمرور السنوات.

حتى إنه استعدى زوجته وكل أقارب زوجته ضدها، وعليها في كل زيارة عائلية أن تتحمل سيل الكلام الجارح الذي يتطاير تحت بند العفوية وقصص الأخريات وإياك أعني وأسمعي يا عفاف.

تلميحاتهن الجنسية الفاضحة تثير اشمئزازها، وهن يتحدثن عن علاقاتهن الجنسية مع أزواجهن، لقد عاشت طفولتها لصيقة بوالدتها ولم تلاحظ حميمية علاقتها الجنسية مع والدها أبدًا وحتى عندما تزوج خطاب

كان يحرص في تصرفاته مع زوجته على التزام الحشمة ومعاملتها أمام أخواته كواحدة منهن.

فماذا حدث للحياء حتى تنشر العلاقات الجنسية في مجالس النساء بوقاحة هكذا؟

هي تعلم أن تلك العبارات الفجة بقصد إشعارها أنها بلا رجل وأنها تأوى كل ليلة إلى فراشها البارد وحيدة من أنفاس حبيب يضمها إليه، وأنها حرمت نفسها من

متع الحياة الزوجية واستقرارها النفسي برفضها كل رجل تقدم للزواج بها حتى أدركها العمر الذي لم تعد مرغوبة فيه من رجل.

كيف لكل من حولها أن يعلم أنها تفضل فراشها البارد على أحضان رجل لا تحبه، وأنها تفضل أن يبقى جسدها محرومًا من لمسات رجل لا ترغب هي به ، يصبح الأمر مثيرًا للغثيان حين تفكر أن يقبلها سواه..فكيف تشاطر رجلاً غريبًا عن روحها هذا الجسد ؟

في كل لقاء يجمع نساء العائلة تكون فيه مضطرة إلى الحضور ربما كي تحرمهن متعة غيبتها بحرية، وربما من أجل والدتها التي لم تعد تستطيع سماع الكلمات فتضطر للصراخ بكل ما يدور في أذنها.

لقاءات حافلة بالثرثرة النسائية يتم فيها تجاهل كل ما يمكنه إثارة اهتمام عفاف، فهي ليست زوجة تستثيرها فنون امتلاك قلب الزوج وجيبه وليست من عشاق التسوق وملاحقة آخر الموضات ولا تعاني مشكلات

الأبناء حين يكبرون أو عندما يولدون، لقد كان لها عالم مختلف عن اهتمامات نساء العائلة و أكثر الصديقات.

كل هذا و مناكدات جمال التي لا تنتهي وجبة يومية دسمة تصبح أحيانًا موجعة حتى الغصة وتنتهي بنزيف من الدموع تسكبها وحدها بمرارة.

إنها عانس..

و لم يعد يحرك فيها هذا الهمس في العيون شيء..

العنوسة ليس عارًا على النساء، بالنسبة لغيرها هي انتكاسة في أخلاق الرجال وأذواقهم ، وآفة مجتمعاتنا وعاداتهم ، وهي نصيب وقدر مثل كل شيء كالجمال والمال والحياة والحب. وبالنسبة لها هي اختيار..وانتهى الأمر.

إنها عانس باختيار القلب أيضًا.

ولقد اعتادت أن تحترم رغبات هذا القلب مهما كانت مجنونة.

"هل أبالي بكلمات نساء أخوتي الطائشة في أنحاء البيت الكبير كالرصاص المندفع إلى القتل العشوائي وكله يصيب أذني بعشوائية ؟ أنا لا، لم أعد أبالي ولم أكن "

خلال سنوات وهي تقترب من الأربعين كانت كل الكلمات الناعمة قد قيلت للترغيب والترهيب المغلف بالرقة، فقطار الشباب سريع لا يتوقف أو يلحظ سرعته هؤلاء الشباب الطائشون ، فإذا مرقت تلك المرحلة الأزهى تحسر الإنسان لماذا لم يستغلها بالأجدى.

لكن في نظرها كان الأجدى هو قضيتها الأولى ، تنوير المرأة بحقها فقط. الجهل والاستسلام لمسمى القدر أصبح هاجسها، التصارع مع الواقع وعقائده الضالة هو ممارستها اليومية. التي تصل أحيانًا للشرود خارج السرب، ومخاصمة الله على صنع أقداره.

لقد صنعت مرارتها عالمًا لم تكن تتمناه ولكنها انغمست فيه بكل حواسها.

عالمًا يتسم بالعناد والرفض لمجرد الرفض..

حتى مساعيها الحثيثة من أجل أخريات ، كان رفض من نوع آخر لواقع كرهته هي وكرهت أن تحياه غيرها، عشرات الفتيات اللاتي تأهلن في دار العفاف لم يشعرن للحظة بروحها التي كانت بأمس الحاجة للتأهيل.

عشرات المحطمات نفسيًّا كن أكثر حرية منها في الصراخ والبكاء والتعبير عن صدمتهن ومدى وجعهن.

وهي تستمع إلى فتيات الدار كل واحدة تبثها الشكوى كأنها ترفع عن قلبها ثقل التجربة، كم تمنت أن تشكو هي خيبتها في من أحبت، أن تصف مدى الفقد الذي ناصبها العداء فلم يتركها تهنأ بلحظة نسيان كاذبة.

منذ عودتها من رحلة العمرة وزيارة بيت الله، أدركت أن خلافها لم يكن سوى مع نفسها..

لقد أعلنت الحداد على قلبها مبكرًا واختارت دفن حياتها حيّة وجعًا من رجل ، وأغلقت كل منافذ التفاهم مع قرارها.

لقد فكرت ذات يوم أن تقبل أي رجل يصلح أن يكون زوجًا بمعيار الزواج الذي يتقنه الجميع، لكن الزواج كان ومازال في نظرها شراكة متكاملة روحًا وجسدًا وفكرًا وأحلامًا.

وهي لا تستطيع مشاركة هذا الزوج سوى بهذا الجسد فقط ، إنها خيانة!!.

ليس للزوج المفترض وإنما لنفسها.. لذاتها هي.

لن تقبل التشظي مادامت مع نفسها متوافقة حتى النهاية.

في هذا العمر كان يمكن أن يكون عُمر الرجل الصغير الذي رافقها إلى العمرة ابنها أو يكون لديها عدد من الأطفال ينادونها أمي.

لكنها رفضت باستماتة أن تتزوج، لم تعد تتخيل نفسها لرجل آخر غيره، شيفرة الأنثى التي يمكنها العطاء أخذها معه.

كما أنها فقدت عذرية قلبها وبراءته في الظن بالآخرين ، كانت ترى في الرجال ذكور ذئاب خلقها الله كي تنهش في أرواح النساء.

ربما كانت ترى زوجة أخيها تنهش راحته وسلامه داخل البيت بطلباتها التي لا تنتهي ومشكلاتها مع الأهل والجيران وحتى صحون الأكل وكل شيء لا يروق لها وجوده حتى هي.. عفاف على رأس كل هذا ، إلا أنها ترى في أخيها وحشًا بلا رحمة حين تبدأ دموع زوجة الأخ في الانهيار بعد موجة غضب عاتية منه.

أبدًا لن تقف في صف رجل حتى وهو ميت..

ولا مكان لرجل آخر في حياتها.. أي رجل.

حتى لو كان الخارق لقانون الذكور الخاص بها، هي لم تكن متعنتة وتعلم أن في الذكور رجالًا، لكنها لا تريد في حياتها هذا الكائن كيف كان.

"ستجدين الرجل الذي يستحقك "

حين قالها حازم ذات يوم بعيد!!. كان يصدر قرارًا واثق الخطى، لكنها لا تصدق أن هناك من سيحب كهذا الحب مرتين، لعل تجربة ثانية ستكون لمجرد الحنين لتجربة الحب تلك..

وهي لم تعد تشعر بالحنين..

لقد أصبحت المرارة هي الشعور الرسمي والمعتمد من قبل سنوات الانتظار الموجعة.

الانتظار سيد النساء المطاع ، يبيع أعمارهن للضياع بسخاء من يملك صوف قطيع كبير من الأغنام، إذا لم يعر أيامهن من صوف الدفء ذبحهن بسكين اليأس.

لكنها لم تعد عفاف الساذجة أبدًا..

من تتعثر بالكلمات والخطوات حين ترتبك، من تصدق كل ما يقال لها كقوانين ومحظورات، لم تعد تلك التي اقتصرت معرفتها بالأهل فقط، و تخاف الغرباء والحديث معهم..

ولم يعد حازم هو أسطورة قلبها، لم يعد هو نجم مدارها الأوحد، لقد قابلت في حياتها العملية الكثير ممن يشبهونه، كثيرًا ممن يملكون لغته

الساحرة وشخصيته المؤثرة، تصادفهم كثيرًا كلما توغلت في المضي في حياتها المرّة، فلا يتركون أثره الحلو في خيالها، يمرون كالهباء لا تراهم أو تشعر أنها صادفتهم، مذاق القرف من تمطي ألفاظهم لجذبها يجعلها تكنسهم من خيالها كأن لم يكونوا.

كانوا كالذباب المسالم حين يملأ الجو بشكل مقزز؛.لكن لدغة العقرب جعلتها تكره كل الحشرات..سريان سمه في أوصالها مصل واقٍ ضد أي مرض آخر.لقد كان الأول والوحيد من أعطته حق السكن في قلبها..

في ذرات جسدها في أنفاسها..هو للأبد.

أعلى النموذج

بحكم عملها اختلطت بأصناف البشر على اختلافاتهم وحافظت على ذات المسافة بينها وبينهم، لم تكن لتقرب أحدا كصديق ففي قرارة نفسها لا تؤمن بالصداقة بين ذكر في بيئة متخلفة مع أنثى أغلبها محجوب ويثير الاهتمام.

وهي ترى التقارب الجميل بين محمود ووفاء تشعر بالغبطة..

تسعد كثيرًا وهي ترى صديقتها تتعافى من وجع مزمن سببه زوج لم يدرك جمال روحها، فأذاق تلك الروح صنوف الإهمال والألم..

كثير هم الرجال الذين يرون كل أنثى جديرة بالحب إلا نسائهم، كل امرأة مشروع فاتنة تنتظر الاهتمام إلا تلك التي خلقت للبيت وتربية الأطفال.

لكن ذلك الحب الجديد الذي يتنامى أمامها بين وفاء ومحمود لم يفتح بابًا للأمل كي تعرف هي رجلًا آخر غير ذلك الذي أحبت..

لهذا فكرت بعمرة للتصالح مع النفس أولًا..

لا تدري لماذا فكرت بعمرة بالذات، هل لإيمانها أن زيارة البيت الحرام والمسجد النبوي عودة للفطرة النقية وولادة من جديد ؟

أم لأنها عاندت كثيرًا أقدار ربها وتمنت الصفح في أطهر أرض.

لا تدري ولكنها عادت بروح جديدة ملؤها الرضا والصفح..

فهل تصفح عن حازم حرمانها منه ؟

أم تصفح لجمال مناكدته لها طيلة عمره ؟

أم صفحت عن الأقدار التي عاندتها كثيرًا وهي مؤمنة أنها تنتزع منها ما تريد ولم تكن تأخذ سوى قدرها المكتوب ؟

لعلها تصفح عن قلبها الذي اختار المستحيل و أراد حبًا ليس لها..

لعلها تصفح عن نفسها التي حرمتها الكثير بعنادها.

قلبي مثقوب بك..فكيف لا أغرق فيك كل مرة .

منذ الصباح وهي تقف أمام مرآتها..تهمس لها:

"لأول مرة أقف أمامك ولا أراه أمامي.. لأول مرة أرى نفسي في مرآتي فقط، لسنوات طويلة وأنا أراقب هذا الجسد وأخاف أن يذبل تفتح زهوره قبل أن يعود..

انتثر شعرها الكثيف وفاحت رائحته العطرة، تذكرت مقولة والدتها وهي ترغبها في الزواج قائلة:

شعرك هذا كيف لا يتنفس عبقه رجل..تنهدت بحسرة وهي تحادث نفسها:

إذا لم يكن هذا الرجل من اختاره قلبي فلن يكون غيره..

لقد كانت تخفي كل كنوزها هدايا إلى يوم عودته.. ولم يعد.

" الآن أنا لا أهتم.. فحتى ساعة متشظية من آخر مساء قبل أن أغلق نافذتي الأخيرة؛ انتظرته كشجرة عتيقة؛ تآكل جوفها حبًا وشوقًا؛ يرتوي ذبولها من بقائها واقفة.. له هو.

كنت أفكر أنني سأنتظر بزوغه -حتى ادعاءً- لآخر العمر؛ ما زالت ضربات فأسه الغاشم ترسم أخاديد عميقة على روح الشجرة العتيقة؛ فيفيض الحب غزيرًا من تلك الشقوق يسملها بختم الغفران والصبر.. حتى وقت قريب كنت أعتقد أن جذور الحب بلا منتهى.. لكنني فجأة أفقت؛ وجدتني أطلت الوقوف ببابه كشحاذة حافية القلب

والمشاعر؛ عارية لا تستر مشاعرها رغم أنه لم يشعرها أبدًا؛ وجدتني لقيطة هواه على قارعة العمر؛ تبحث عن أحقية حب.

أفقت..مغشي عليّ من سكرة فقد.

أفقت.. أعدد شقوق الروح و أعجب على الصبر من كل هذا الصبر..

لم أعد تلك الحمقاء التي تتلهف لوجودك والتي تناولت كفك تقبلها امتنانًا لهذا الوجود..

لم أعد أتمنى رؤيتك وإن تمنيتها فلكي أريك أني لم أعد أنا..

هذا الصباح لها هي بلا ذكريات أو ماضٍ مؤلم..

إنه اليوم الذي يكلل كفاح عمرها من أجل كل أنثى سكنت أعماقها واحتاجتها كي تتحدث باسمها وتعمل من أجلها.

اليوم ستقول لكل من نهش في جسد عنوستها كلامًا جارحًا أن العنوسة قدر اختارته هي أيضًا وهي تحترم اختيار القلب في كل مرة.

كل قريباتها وزوجات إخوتها وزميلات العمل ورفيقات الدراسة ، وكل الرجال الذين يعتقدون أنها تحتاج منهم إلى أمل الارتباط ، سيعرفون اليوم أنها تركت عائلة صغيرة من أجل عائلة كبيرة اتسعت رقعتها لتشمل كل امرأة مهضومة الحق أو محرومة العائل ، أو معدومة الخبرة في تسيير شئون نفسها، هي عيون كل الضريرات وهي أقدام كل المعوقات، وهي رصيد كل معسرة بحاجة لمن يساعدها.

اليوم تلتقي بعائلتها كلها وهي تحتفل بعيد الأم.. أم كل الأمهات.

فمنذ أبلغها القائمون على المؤسسة بنية تكريمها في حفل يقام اليوم ، وكل أيام عمرها تمر أمامها كشريط سينمائي بطيء ، لتجد أنها لم تخسر العائلة التي يظن الجميع حولها أنها خسرتها ، بل ربحت عائلة أكبر تستحق وقتها وجهدها كله.

لقد قامت بخلق نتاج اختيارها ، وهو نتاج يستحق تضحيتها.

حتى إنها غير راغبة في تذكر حازم كما تفعل طيلة عمرها، لم تعد ناقمة عليه أو عاشقة له، لم يعد محور كونها كما هو دائمًا، لقد خلقت كونها الخاص الذي لم يكن موجودًا فيه إلا كوهم يدفعها للأمام..

ربما تلتقي به يومًا ما.. ربما تراه مجددًا كحقيقة..

لكن اليوم يجب أن يكون لها وحدها..

ستنسى فيه حازم..

وجمال..

وعنوستها..

وكل أوجاعها..

فقط ستقابل كل الفتيات اللاتي أحببنها كونها هي..

ستحصد ثمرة أكثر من خمس عشرة سنة من العمل..

سترى سعادتها في سعادتهن.

******

حين أخبرها مدير المؤسسة أن هناك ضيف شرف في حفل تكريمها لم يخطر في بالها أبدًا أن يكون هو..

قال لها المدير: إنه زميل عمل قديم.. فلم تصدق لهو القدر بها..

إنه حازم..

فهل يخادعها نظرها ؟

إنه حازم ولكن بشعر أشيب تمامًا لم يعد يطرز السواد كما كان؛ ووجه فقد نظارة الشباب وجبروته الطاغي ، حتى تلك النظرة الحنون الآسرة ، أصبحت تائهة لا معنى لها، أصبح شيئًا يشبه حازم الذي مزق أيامها ولياليها شوقًا وحنينًا.

ها هو يطيل النظر إليها؛ كأنه ينبش في ذاكرته عن وجه يشبهها ، وجه فتاة كانت منقبة في الخامسة والعشرين أسقطت من أجله نقابها و أشياءً أخرى.

هل تشبه نفسها وقد تجاوزت الأربعين ؟

اقتربت منه ببطء وهو يتكئ على الطاولة التي أمامه بتراخي السنوات وليس بتراخي الواثق من قدرته على النهوض وقت الحاجة، كم تنزع السنوات من إدراكنا ونشاطنا !!

_ أستاذ حازم سعيد ؟

اعتدل في جلسته بارتباك وهو يكابد النسيان في ذاكرته الصدئة ، قال بحرج:

_ نعم سيدتي أنا هو.. وقطب بين عينيه كمن تلقى صفعة تنشيط لذاكرته أفرزت كلمة واحدة:

_ عفاف..

جلست مبتسمة. متعجبة من ذلك الهدير لطواحين الذكريات يعصف بجسدها وروحها بعد كل تلك السنوات.

_ جيد أنك تذكرتني..

_ آه نعم ، مع هذه التغييرات فينا كان أمرًا جيدًا، إذًا يبدو أنك حققت أحلامك كما تمنيت.

هل حققت أحلامها حقًا ؟ !!

لسنوات طويلة كان حلمها أن تلتقي به هو لمرة ثانية، وأن تعرف لماذا تركها ببساطة وذهب.

لكنها خلال سنوات الانتظار ، كانت تبحث عن نفسها أيضًا ، فقد غادر أهم جزء منها خلفه وتغرب خمسة عشر عامًا.

همست بصوت هادئ ينكر وجود عواصف الذكريات:

_ ربما حققت جزءًا مما تمنيت، لكن الإنسان لا يحصل على كل ما يتمنى، فحتى الأحلام تحتاج أن نضحي بالأقل أهمية كي نحصل على الأهم..

أطل مكر لم تعهده في عينيه في الماضي البعيد وهو يقول بابتسامة مستفزة:

_ وما كان الأقل أهمية في حياتك يا عفاف ؟

_ هو ذلك الذي كان الأكثر أهمية في حياتك..العائلة.

إنه لا يتذكرها هكذا تتلاعب بالكلمات كأنها في مضمار لإثبات الجدارة في توجيه اللكمات تحت الحزام ، لقد كانت بريئة حتى السذاجة ، صريحة في معانيها وكلماتها حد التهور والغباء ، فلماذا أصبحت عباراتها ملغومة باللؤم هكذا ؟ لعلها مازالت تحمل ذكرى قصة حب لم تكن جدية من البداية..

_ هل تعنين أنك لم تتزوجي ؟ أم تركت الرجل من أجل طموحك العملي ؟

_ بل لم أجد أهمية لوجود الرجل في حياتي. واستطعت العيش دونه ودون أي مشقة في إزاحته.

لم تحذر في دواخلها ما الذي قد يكون سببًا في نظرة الدهشة التي سطعت في عينيه؛ هل يفهم أنها رفضت كل الرجال لأنها اختارته هو ؟، ولأنه كان اختيارًا غير متاح فقد عزفت عن اختيارات الحياة لها.

أم يعتقدها غبية كي تعيش بلا زواج من أجل رجل فضل عائلته عليها.

قال متعجبًا وهو يلغي سيل التفسيرات في رأسها:

_ لم أكن لأصدق أن فتاة جميلة مثلك وشغوفة يمكن أن تبقى بلا زواج ولا أصدق أن رجلاً لم يخترك أنت.

همست بصرامة:

_ أنا لا أنتظر رجلاً كي يختارني، فمنذ اخترت أنا الرجل الغلط ورفضني لم أعد أجد أن الرجال يستحقون المفاضلة.

وقبل أن تفتح له بابًا لتبريرات تمنتها لسنوات طويلة قالت بصوت أكثر تماسكًا ورقة:

_ وأنت أخبرني ماذا فعل بك العمر وهو يتواطؤ مع الأحداث علينا.

هل ما زلت تسكن في إب مدينتك الأجمل ؟ أم انتقلت للسكن هنا في صنعاء ؟

أطرق بألم.. كأنما سؤالها نقله بقوة من قصة لا تعنيه كثيرًا؛ قصتها معه !! إلى قصة رسمت على ملامحه المتعبة ألمًا حادًا وهو يقول:

_ أنا أسكن هنا، أما الأولاد فقد بقوا مع والدتهم في إب.

بقوا !!؟

وهل رحل هو عنهم ؟ و لماذا عساه ترك عائلته التي قال يومًا أنه يضحي بكل سعادة خاصة به من أجلهم؟

_ إنها الأقدار يا عزيزتي ! لقد أوقعتني أنثى في حبائلها منذ سنوات، فعلت من أجلها ما يفعل كل عاشق؛ تركت مدينتي كي أكون بقربها، تزوجنا وتحملت فوق طاقتي من أجلها وأنا منقسم بين مدينتين ومسؤوليتين، حتى عملي نقلت مقره إلى مدينتها؛ حتى هجرتني زوجتي الأولى ونبذني أولادي بعد صنيعي بأمهم ، وماذا كان منها في آخر الأمر ؟ تركتني وعادت لأهلها بعد أن خسرت كل أهلي من أجلها.

يا للرجال !!

ها هو يتحدث إليها كأنه يتحدث إلى والدته التي ينتظر شفقتها ومساندتها ، يتحدث عن صدمته في قصة حب انتهت بالرفض، وحالة غدر انتهت بالوجع والألم. هل ينتظر تعاطفها هي ؟

لماذا ذاكرة الرجل تشبه الغربال لا يعلق فيه سوى قصصه التي يضخمها وتملأ كل عقله بمظلوميته،لماذا يمتهن النسيان ويستخدمه سوطًا لجلد من يتذكرون خديعته ؟!! لقد ضحى بعائلته ومدينته الخضراء.. من أجل امرأة.. لكن ليس هي.

لماذا !!؟

لماذا لم تكن هي !!؟ لقد أخبرتها سوسن ابنة الخال الإجابة قبل سنوات طويلة؛ لكنها لم تصدقها، رفضت أن تستوعب أو تفهم، ظلت تعيش الوهم وتثق بمبرراته التي تريد أن تنبت في رأسها!!

كم الوهم ماكر خبيث !!؟

ببساطة.. لم يكن يحبها..

لم تمثل له رقمًا مهمًّا أو جديرًا بتقديم أية تضحية ذات بالٍ !!.

لم يحبها..أبدًا..كان يتسلى فقط..

لكنه حين أحب فعلًا ضحى وبكل شيء !!.

وأخيرًا انتقمت امرأة لها؛ لن تغار من امرأة ارتبطت به، لأول مرة لن تحرق الغيرة قلبها.. بل ترغب في شكرها، لقد أخذت بثأر سنوات الفقد والألم.

وهي تتأمل ملامحه المنهكة الحزينة.. لم تستطع أن تكرهه..

لم تشعر نحوه بالحقد لكل سنوات العمر التي أهدرتها في حب يائس..

ربما لأنها حين أحبت..أحبت حتى المنتهى _حتى ذلك الذي أساء لها_ فلم تجد الكراهية في قلبها ظلًا له.

لم يرغمها على حبه..

ولم يعدها بشيء..

لكنها أحبته..

وما زالت تحبه..ربما أدركت الرياح العابرة التي تشكو إليها كل ليلة كم أحبته !! لكنه أبدًا لن يدرك ذلك أو يفهمه..لن يفهم كم احتاجته كي تثق بكل ما حولها..

مازالت تراه حازم الرجل المختلف الذي خطف أنفاسها ذات يوم..

الرجل الذي وهبته أكثر من روحها..

_ ما زلت أنت يا عفاف صبية جميلة، لم تفعل بك السنوات شيئًا ولا مصائب الحياة غيرت جمالك وروحك..أصبحت كما تتمني فلا تنكري، لقد كنت تواقة لأن تكوني شيئًا ذا بالٍ ينتزع الإعجاب والاحترام ويفرضه فرضًا، أصبح لك بصمة واضحة في عالمك وبنات جنسك..

لقد كنت أعلم أنك قوية وستصلين لكل ما تريدين.

هل رآها أخيرًا..

و رآها متأخرًا.. لكنه يعرف كل هذا عنها قبلًا..

ما لا يعرفه أن إصرارها كان بسببه هو، وأن يأسها من حبه كان وقود نجاحها..

أطلق ضحكة متعبة وهو يقول:

_ما زلت تحدثين نفسك معي أكثر من حديثك لي..

ابتسمت بدهشة: مازال يتذكر صمتها الصاخب أمامه..همست:

_ نعم ما زلت عفاف بكل تفاصيلها التي تتذكرها أنت..

قطب جبينه بكآبة:

_ لم أكن لأستحقك.. تمنيت لك الأفضل، تمنيت لك شابًا يشبهك؛ البداية تجمعكما، لقد كنتُ أنا في المنتصف..

كنت موزعًا بين رغبتي في الاحتفاظ بك وبين تركك كي تعيشين حياة أفضل..

ابتسمت بسخرية:

_ ولكنك ارتبطت بأول امرأة أحببتها فعلًا وتركت خلفك كل شيء من أجلها.

_ كان الأمر مختلفًا.. كانت مناسبة في كل شيء.

كرهت إظهار ألمها لصنيعه وكرهت أكثر تبريره الغامض..

لذا عمدت إلى تغيير موضوع الحديث برمته وسألته بحياد:

_ كيف تعيش وماذا تفعل الآن ؟

فهم قصدها فابتسم قائلًا:

_أدير عملًا استشاريًّا وأعيش وحدي في شقة متواضعة هنا في صنعاء، أحيانًا أفكر بالعودة إلى إب لكنني أخشى الرفض في عيون أولادي، فتركي المتكرر لهم بحكم عملي جعل ولاءهم المطلق لوالدتهم.

إنه وحيد..

هذا ما فكرت به..

هل تشبه وحدته التي يعيشها وحدتها التي بسببه هو ؟

هل يدرك وحدتها ؟!! كما آلمها بقاؤه وحيدًا ؟

كيف له أن يكون وحيدًا ولديه مكانًا شاغرًا في عائلته لن يملؤه الغياب.

ربما يكون الآن بعد كل هذا العمر في متناول القلب، لكن هذا القلب الذي بقي مثقوبًا به ينبض بحبه حتى آخر العمر لا يريده أخيرًا..نعم لا تريده.

ربما ستمارس عملها الدائم في إسعاد آخرين وستجمع شمل هذه العائلة، ربما تحنو عليه كأم لم تمارس حق الأمومة يومًا..ربما..

_عفاف ؟ همس وهو يستغرق في الضحك :

_ كفي عن أحاديثك الجانبية مع نفسك أمام الآخرين، لا تشغلي نفسك كيف يشعرون وبماذا يفكرون وماذا تصنعي من أجلهم ؟

_ يجب أن تعودِ إلى عائلتك، وتعوضهم عما فات، وتعتذر لزوجتك.

التقى حاجباه بتلك الطريقة التي لا تنساها وهو يقول:

_ ربما يحدث. إنما لم يعودوا بحاجة لي الآن، أنا هو الذي بحاجة لوجودهم وأنا أخطو نحو الشيخوخة.

لقد راودها ذات يأس حلم أن تهتم به في شيخوخته، لا تدري لماذا؟

ربما لأنها عجزت أن تلتقي به في شبابه فتمنت أن يكون لها ذات عمر وكفى.

ربما القدر متأخرًا قرر أن يحقق لها ذات أمنية أخيرًا.

لكنه لم يعد اختيارها هي.. تشعر بذلك في قرارة نفسها.

لقد وجدت نفسها تنهض من أمامه وهي تنهي جلسة تمنتها لسنوات طويلة ولم تنتهِ بعد، كانت تشعر بالغرابة من نفسها، وهي تتمنى له عمرًا مديدًا وعودة سريعة إلى عائلته.

حدثته دون استشارة داخلية أو حديث جانبي مع نفسها كعادتها، كانت عبارات قوية وثابتة وهي تقول:

_ سعيدة برؤيتك مرة أخرى يا حازم، أتمنى لك وقتًا لطيفًا هنا وسعادة لكل حياتك..

نهض مودعًا ومرتبكًا من انصرافها المفاجئ، يحادث نفسه بحنين غادره منذ زمن:

_ كم تغيرت!!.. تغيرت كثيرًا..





فكرية شحرة

قلب حاف

ألم يقــل يومًا ذئب ليلى أن في رأســها نارًا تشــتعل من ســوء الظن بــه ؟ لقد قال ذلك وهــي في ذروة البــراءة والبلاهة، ليتــه يعلم أين وصلت نيرانها تلك التي أحرقت ليلى وكل براءتها؟.

لقد أصبــح لها حكايــة .. تجلس إليها كل مســاء، تحتســيان كؤوس المــرارة والحرمــان، و تعاهدهــا كل ليلــة أن تكون في بــراءة تفكير الذئاب.

هي التي تقص حكايتها للريح فقط ..

فعندما يقص الإنســان حكايته لشــخص آخــر فإنه يحــاول جاهدًا أن يزيح أكبر قــدر من الحقائق الســيئة عن نفســه، ربما لأنــه يجهلها أحيانًــا وأحيانًــا ينكرها، ولأنها تقصهــا للريح فإنها لن تســلّم لمقص الاختــلاق والتزييــف أجزاءً مــن حكايتها، إنهــا تخبر الريــح بتلك التفاصيل التي أخفتها عن جوارحها التي تشي بها كثيرًا .

إنها الآن على موعد مع الله، موعد انتظرته منذ سنوات طوال ..

كي تعتذر لنفسها وتبحث عنها هنا ..

من الرواية ..